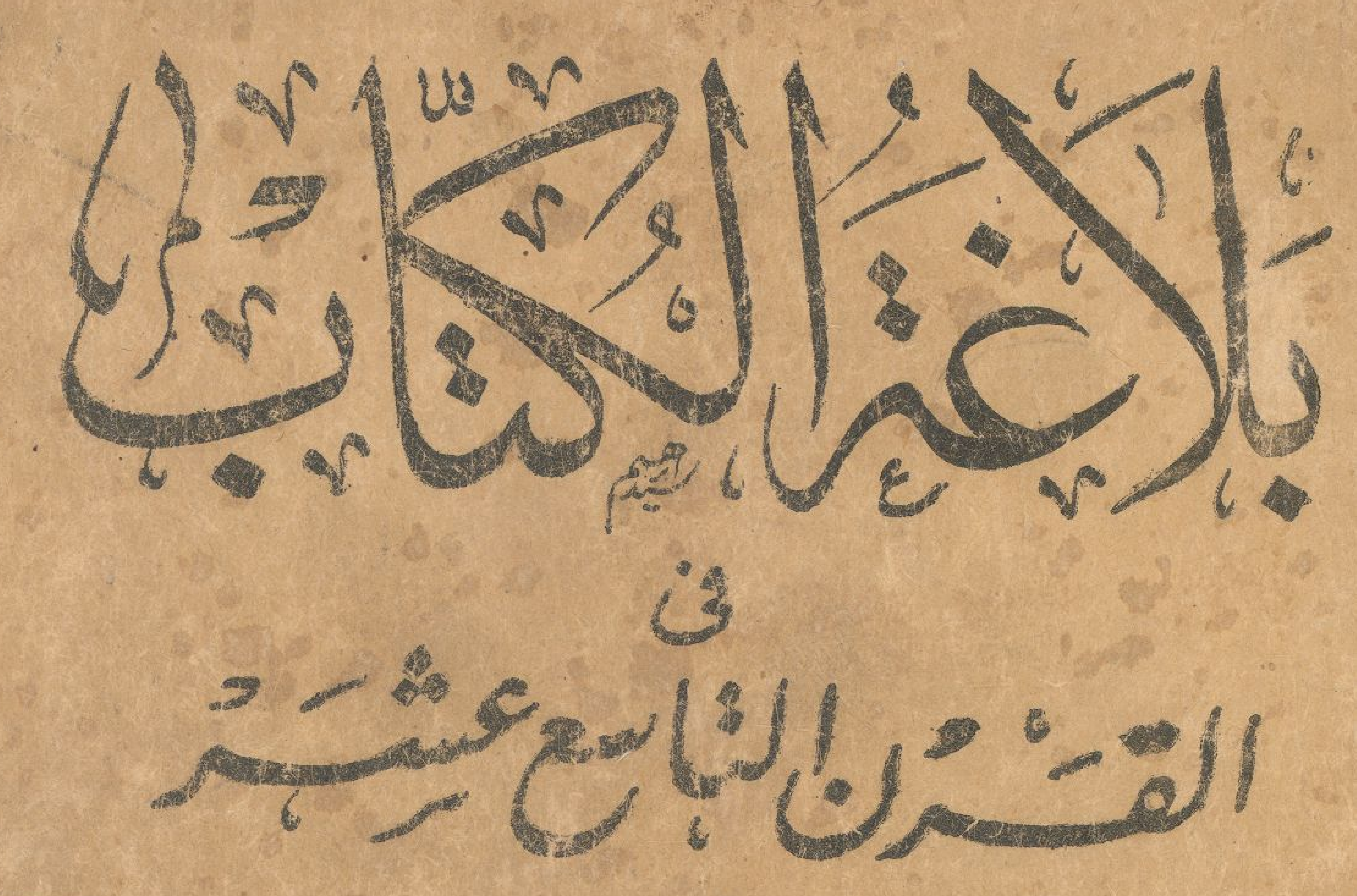


من أجمل ما تحلى به هذا الكتاب فصاحة التعبير ورقة الاسلوب وحسن البيان وسلامة الذوق. فى الانشاء. والادب. والتاريخ. بعبارات فصيحة. الخ

عمل

ابراهيم محمد رمضان

الطبعة الاولى

تطلب من المكتبة الجامعة بشارع محمد على بمصر

لمديرها

محمد يوسف



عمل

ابراهيم محمد رمضان

الطبعة الاولى

تطلب من المكتبة الجامعة بشارع محمد على بمصر

لمديرها

محمد يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم . والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم . سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وأصحابه وسلم (وبعد) فهذا كتاب يشتمل على خمسة من كُتَّابْ القرن التاسع عشر جامع لارق ماجادت به قرائحهم فى العلم والادب والاجتماع وغير ذلك من المواضيع السامية تنهض بالنفوس الى الفضيلة وتغرس بذور الادب الراق فى حقول الناشئة الحديثة فجاء منسقا تنسيقا علميا حديثا لا يستغنى عنه الطالب والعالم والاديب فجاء شاملا باد المثال بل لم يسبق تأليف مثله والله ولى التوفيق فهو حسبي ونعم الوكيل

ابراهيم محمد رمضان

المرحوم

عبد الله فكرى باشا

حياته

هو عبد الله فكرى باشا بن محمد افندى بليغ بن الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد ولد عام ١٥٢٠ هـ ولما توفى والده سنة ١٢٦١هـ كان لا يزال فى الحادية عشرة من عمره فنشأ بعد وفاة والده في حجر أحد أقارب أبيه وكان قد بدأ في تعلم القرآن وحفظه حتى اذا ما أتمه حفظاً وأجاده تلاوة وتجويداً طلب العلم بالجامع الازهر الشريف وأخذ علوم الفقة والتفسير والحديث واللغة والعقائد والمنطق على يد كل من الشيخ ابراهيم السقا والشيخ محمد عليش والشيخ حسن البلنانى وغيرهم وكان فى هذه الاثناء يتعلم أيضاً اللغة التركية فأجادها ثم لم يلبث أن تعين فى القلم التركى فى الديوان الكتخدانى سنة ١٢٦٧ هـ وكان لا يزال منكبا على تحصيل العلوم بالازهر الشريف فكان ينتهز فرصة الفراغ قبل ذهابه الي الديوان وبعد عودته منه ليذهب الى حيث يتلقى العلوم — ظل فى هذا الديوان مدة حتى انتقل

إلى ديوان المحافظة ثم إلى وزارة الدخلية بوظيفة مترجم ثم لم يلبث أن انتقل إلى المعية السنية فى عهد المغفور له سيعد باشا وظل فيها إلى أن تولى الخديوى الأسبق ساكن الجنان اسماعيل باشا سنة ١٢٧٩ﻫ فأبقاه المغفورله في معيته ونال صاحب الترجمة فى خدمته فكان ينتقل معه ويرافقه فى راحاته وغدواته وكان أيضا يرافق الحرم الخديوى فى رحلاتها حتى أنعم عليه فى سنة ١٢٨٢ﻫ بالرتبة الثانية مع لقب البيكوية

وفى سنة ١٢٨٤ﻫ أسند إليه الجناب الخديوى ملاحظة الدروس الشرقية وهى العربية والتركية والفارسية بمعية أنجاله وغيرهم من أمراء العائلة الخديوية فأخذ على عاتقه وجوب القيام بهذه المهمة بنفسه بأن يلقى الدروس شخصياً وأحيانا يراقب ماهية التعليم والتدريس ويباشر العمل مباشرة دقيقة حتى جاء عام ١٢٨٦ ﻫ فنقل إلى ديوان المالية فعهدت إليه مسألة النظر فى أمر الكتب التى كانت فى المحافظة إذ ذاك وابداء رأيه وملاحظاته فيها فأخذ منذ ذلك الحين يتردد مدة على ديوان المحافظة لفحص هذه

الكتب وبعد أن فرغ من فحصها رفع تقريراً مطولا مفصلا عن هذه الكتب جاء فيه أن وجودها بالديوان (المحافظة) ضرر كبير وأن من الواجب ضرورة وضعها فى مكان خاص داخل خزائن مخصصة لذلك حين ينتفع الناس من وجودها هناك وقد نقلت الكتب المذكورة إلى المكتبه الخديويه المشهورة فى سراى درب الجماميز وبعد القيام بهذه المهمه كان المجلس الخصوصى فى ذلك الحين (مجلس الوزراء الآن) مشتغلا فى جمع اللوائح والقوانين وتعديلها وتنقيحها فعهدت الى المرحوم اللوائح والقوانين التركية فأخذ فى العمل حتى سنة ١٢٨٧

وفى سنة ١٢٨٨ هـ عين وكيلاالديوان المكاتب الأهلية وكان رئيسها إذ ذاك المرحوم على باشا مبارك وفى سنة ١٢٩٤ عين صاحب الترجمة وكيلا لنظارة المعارف العمومية وأنعم عليه برتبة الميرميران الرفيعة ثم أسندت اليه ايضا مع بقائه فى وظيفة وكالة وزارة المعارف وظيفة الكتابة الأولى بمجلس النواب وفى سنة ١٢٩٩ عين ناظراً للوزارة وفى شهر رجب من تلك السنة أقيل من الخدمة كما أقيل الوزراء

الآخرين مثله لأحوال اقتضتها الثورة العرابية المشهورة ولما انقضت الثورة المذكورة وأخذت الحكومة فى محاكمة أعضائها كان المرحوم صاحب الترجمة من ضمن هؤلاء الذين قبض عليهم وقد أظهرت المحكمة براءته الا أن الحكومة قطعت عنه المعاش الشهرى الذى كان يتقاضاه فشق عليه الأمر والتمس المثول بين يدى الجناب الخديوى فلم يجب الى طلبه فأخذ ينظم قصيدة يمدح فيها الجناب الخديوى ويظهر له براءة ساحته ويتظلم فيها مما لحقه من ايقاف صرف معاشه وها نحن نقتطف منها شيئاً لملاحتها قال .

كتابى توجه وجهة الساحة الكبرى
وكبر اذا وافيت واجتنب الكبرا

وقف خاضعاً واستوهب الاذن والتمس
قبولا وقبل سدة الباب لى عشرا

وبلغ لدى الباب الخديوى حاجة
لذى أمل يرجو له البشر والبشرا

لدى باب سمح الراحتين مؤمل
صفوح عن الذلات يلتمس العذرا

تنـوء الجبـال الراسيات لحلمـه

اذا طاش ذو جهل لدى غيظه قهرا

يراقب رحمن السموات قلبه

فيرحم من في الارض رفقا بهم طرا

مليكى ومولاى العزيز وسيدى

ومن ارتجى آلاء معروفه العمرا

لئن كان أقوام على تقولوا

بأمر فقد جاؤوا بما زوروا نـكرا

حلـفت بمـا بـين الحطيم وزمزم

وبالباب والميزان والـكعبة الغرا

لمـا كان لى فى الشر باع ولا يـد

ولا كنت من يبغى مدى عمره الشرا

ولـكن محتوم المقادير قد جرى

بما الله فى أم الـكتاب له أجرى

أتذكر ياموﻻى حـين تقول لى

وأنى لأرجو أن ستنفعنى الذكرى

أراك تروم النفع للناس فطرة
لديك ولا ترجو لدى نسمة ضرا
فعفوا أبا العباس لازلت قادرا
علي الامر ان العفو من قادر أحرى
وحسبي ماقد مر من ضنك أشهر
تجرعت فيها الصبر أطعمه مرا
يعادل منها الشهر فى الطول حقبة
ويعدل منها اليوم فى طوله شهرا
أيجمل فى دين المروءة أننى
أكابد فى أيامك البؤس والعسرا

فلما عرضت هذه القصيدة على سموه أجلها و حلها المكانة التي تليق بها وسمح له بالمثول بين يديه فلما مثل بين يديه ألقى أمامه قصيدة أخرى جاء فى مطلعها

ألا أن شكر الصنع حق لمنعم
فشكر الآلاء الخديوى المعظم
مليك له فى الجود فخر ومفخر
على كل منهل من السحب مرزم

سأشكره النعماء ماعاتقت يدى

يراعى أو استولى على منطقى فمى

فلماسمع سموه منه ذلك أمر باعادة صرف معاشه اليه وفى سنة ١٣٠٢ سافر الى الحجاز ليؤدى فريضة الحج الشريف فقابله علماء مكة والمدينة وادبائها بالترحاب واحلوه بينهم المكانة التى تليق به وبشخصه وقد وضع مؤلفا عن ذلك بعنوان (الراحلة المكية) وفى السنة التالية توجه الى بيت المقدس والخليل لزيارتهما وقد عرج الى بيروت حيث مكث فيها شهرا واحدا ثم سافر الى بعلبك حيث زار آثارها وتفرج عليها ثم سافر منها بطريق لبنان الى بيروت وظل فيها شهرين كان موضع احترام الجميع واجلالهم طول هذه المدة ثم سافر من هناك الى مصر .

وفى سنة ١٣٠٦ انتدبته الحكومة المصرية لرئاسة الوفد العلمى المصرى فى المؤتمر الدولى الذى انعقد فى مدينه استكهولم وكان نجل صاحب الترجمه عضواً من اعضاء هذا الوفد وقد نفح الجناب الخديوى صاحب الترجمه قبل سفره

من الاسكندرية بالنيشان المجيدى الثانى وقد مر فى أثناء سفره على تريستا من أعمال النمسا والبندقية وميلانو من أعمال إيطاليا ولوزان من أعمال سويسرا وباريس وقد أقام فيها أكثر من عشرين يوما شاهد فى أثنائها المدينة وضواحيها وآثارها ومعارضها فشاهد فيها عجائب الصنائع وغرائب الفنون وبديع الاتقان ودقيق العمل وقد سر بما رآه ثم برحها الى لندرة عاصمة البلاد الانجليزية ومنها الى نوتردام ولاهى وليدن وقد زار مكتبتها ومطبعتها الشهيرتين ثم سافر الى كوبنهاجن عاصمة الدانيمارك ومنها الى حيث يجتمع المؤتمر الذى أرسل من أجله وقد تعرف بالعلماء الذين اجتمعوا فى المؤتمر كما أنهم احترموه واجلوه لماله من المكانة العلمية السامية وقد أنعم عليه ملك السويد والنرويج أسكار الثانى نيشان (وازة) من الدرجة الأولى وفى أثناء عودته الى بلاده من المؤتمر مر على برلين عاصمة البلاد الالمانيه وفينا عاصمة البلاد النمساويه فلقى فيها مالقيه فى غيرهما من الاحترام وكان فى أثناء عودته يعد العدة لتحرير ما لاقاه فى رحلته وما شاهده الا أنه فوجىء بمرض السكته الذى اعتراه فى شهر

رجب سنة ١٣٠٧ فاضطر الى ابقائها حتى اذا ما شفى أتمها ولكنه المرض عاوده مرة أخرى بعد ظهر يوم الخميس الموافق ٧ ذى الحجة وهو عائد من أبعاديته بتلحوين فحال هذا المرض اتمامه تحرير هذه الرحلة وقد زاد المرض عليه فتوفى الى رحمة الله تعالى فى الساعة الثانية العربية من صباح يوم الاحد عاشر الشهر وهو اليوم الذى ينحر فيه المسلمين النحائر سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا وقد تفضل الخديوى فاروق الى آل الفقيد يواسيهم فى مصابهم ويشاركهم فى أحزانهم وهذا دليل على إخلاص الفقيد والتفافه حول عرشه.

كان الفقيد شاعرا مطبوعا وكاتبا عبقريا واستاذا بليغا تطور فى الشعر تطوراً بعيداً وذهب فى انشائه مذهب الشعر البصرى

أما رحلة الفقيد الى المؤتمر فقد عنى بنشرها نجله المرحوم امين باشا فكرى ضمن ارشاد الالبا الى محاسن أوربا وهو مجلد ضخم جدير بالمطالعة لما حواه من ذكر عوائد الناس فى البلاد الأخرى ومعتقداتهم بل ولما

حواه أيضا ونثر الفقيد مما لم ينشر الا فى هـذا الـكتاب وقد طبع بمصر سنة ١٨٩٢

أما مؤلفات الفقيد فكثيرة نخص بالذكر منها المقامة الفكرية فى المملكة الباطنة وقد طبعت هذه المقامة فى مصر مراراً عديدة وهذا برهان ساطع ومثال ناطق لما كان له من الباع الطويل خصوصاً فى الآداب والنظم ولا غرو وفاته كانت ضربة من الضربات القاضية على العلم فى مصر ورجاله

المختار من نثره

المقامة الفكرية

حدثني صاحب مبارك . ليس في فضله يشارك . قال كان ببعض الامصار . فيما مضى من الاعصار . رجل من التجار . ذو شرفٍ ونجار . قد رزق سعة الغنى . وجنى ثمرات المنى . وكان حسن المعاملة . كثير المجاملة . سليم الفؤاد . حلو الوداد . فطار صيته في الأقطار . وصار في جميع الامصار . فانفسح نطاق تجارته . واتسعت دائرة ادارته . ورزق بولد سرّته سيرته . وحسنت علانيته وسريرته . فكان له رفيقاً . وعلى أهله شفيقا

نعم الاله على العباد كثيرة　　　وأجلهن نجابة الأولاد

وعاش الرجل مدة على هذه الحال . رخي العيش ناعم البال . قرير العين بكثرة المال وبلوغ الآمال . حتى قارب مدى العمر حدّه . وقد بلغ إبنه المذكور أشده . فلما أظله يومه الموعود ، وأحس بانقضاء أمده المحدود . دعا بابنه في

خلوة من الاغيار . وأوصاه يوما بالبررة الأخيار وقال فيما اودعه سمعه . وأراد به نفعه . يابني إني أرى الشمس آذنت بالأفول . وقد عزم الغريب على القفول واليوم قد أزف الرحيل . والبقاء في هذه الدار مستحيل

كل ابن أنثى وان طالت سلامته
يوما على آلة حدباء محمول

وأنا مكاشفك بخبيئة في الضمير . ومخبرك بأمر خطير ولا ينبئك مثل خبير . ان عندي كنزاً أدلك عليه . لترجع بعدي عند الحاجة اليه . فيكون لك ظهرا في شدائد الأيام وظهيرا في مكايد الانام . فافتح لما أقول إقفل لبك* واحفظه كسواد عينك وسويداء قلبك. وما ادت كنز مال مدفون. ولا نفيس جوهر مكنون . فان مالي لديك وتجارتي بين يديك . والعقار كما علمت . واليسار مثل ما فهمت والرزق متيسر . وامر التجارة غير متعسر . ولكن قصدت ماهو اعلى واغلى . واجدر بالرعاية والعناية واولى . وما هو إلا صاحب غرفته قديماً . وعكفت على وده مستديماً . قد هذبته الليالي بمرها : وجرعته كؤس حلوها ومرها، وكنت

جربته فى خيرها وشرها . وبلوته فى نفعها وضرها . وكررت اختباره مراراً . فزاد اختبارى اختياواً . وطول تجربتى منزلة عندى ومقدارا . وكان لى كما قيل

إن أخاك الحق من يسعى معك
ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك
شتت فيك شمله ليجمعك

وأنت ترى كثرة الأصحاب حولنا . وإكثارهم من الزيارة لنا . ولكن كل ألف لاتعد بواحد

واذا صفا لك من زمانك واحد
فهو المراد وعش بذاك الواحد

وهذا الرجل الذى ذكرت لايتردد كما يترددون . ولا يبدى من ظاهر الحال . والتجمل بالمقال . مثل ما يبدون وأنا أزوره المرة والمرتين فى الأسبوع . والود فيما بيننا غير مقطوع ولا ممنوع . فانما الحب فى الصدور لا فى الثغور وفى شغاف الجنان . لا فى أطراف اللسان

وليس أخي من ودني بلسانه

ولكن أخي من ودني وهو غائب

ومن ماله مالي اذا كنت معدماً

ومالي له إن أعوزته النوائب

فهذا هو الكنز الذي قصدت . والحرز الذي أردت فاشدد على صحبته العرى . ولا تنبذ بمودته في المرا . واتبع هذا القول بنصائح ارتضاها . وأمور أمضاها وكأنها حاجة كانت في نفس يعقوب قضاها . ثم أنه ودعه . وودع الدنيا معه . نزل مع أعماله في رمسه والحق حاضر يومه بغابر أمسه . فأقام إبنه مراسم المآتم . وقضى من مقضيات العادة الجارية اللازم . وأخذ في إدارة التجارة كالأول وصار عليه المعول . وكأن الحال ما تحول . إلى أن اجتمع عليه جماعة من أنداده . وأظهروا التحقق بوداده . وتملكوا بحسن ملاطفتهم أزمة فؤاده . وكانوا أتبع له من ظلاله وأطوع من يمينه لشماله . وانكف عنه بالضروره أصحاب الوالد الواحد بعد الواحد . حيث رأوه لهؤلاء الاقران أميل . ومكانتهم لديه أمثل . وامتزاجه معهم أجمل وأكمل

وأحاط به هؤلاء الجلساء. ولزموا بيته صباح مساء فلما خلا لهم الجو ولم يبق فى الصحبة ليت ولا لو. أخذوا يذكرون الشرب والحان. ويتذاكرون الطرب والألحان والمثالث والمثانى . والغوانى ولأغانى. والصاحب يقتدى بصاحبه .ويسرق من طباع مصاحبه

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدى

فحركوا من رغبته الساكن .وجروه لما يكون فيه ذلك من الاماكن :فجرى معهم في فنون المجنون . ومجال ابنة الزرجون . فمازال حتى قصر على هذه الشؤن ميله وحصر فيها نهاره وليله. فلا جرم اختلت تجارته . ونحلت ارادته .فمال على المال الموجود فى خزينة النقود فبسط الراح للانبساط والراح. يكيل بالقدح ولايبالى بمن ذم او مدح حتى فنيت الصفراء والبيضاء واشتبه جوف صناديقها والفضاء. فوضع يده فى الجواهر واخائر الذخائر. يبيع ويضع ويصرف ويتلف ويلحق دنيها بفاخرها. حتى اتى على آخرها. ثم انثنى على العقار يبيعه . ويضيعه فى تحصيل

لذاته . ورضا لذاته وقضاء شهواته. ثم أتبعه المزارع والضياع فعم جميعها بالضياع . وتفرق عنه الأتباع والخدم . وكان باع الدواب فيما تقدم . فلم يبق عنده صاهل ولا ناهق . ولا صامت ولا ناطق . اللهم إلا دار واحدة وكان يسكنها مع الأهل والوالده . وكان حين أخذ فى انحطاط الحال. وأشرف على الاقلال. صارت جموع إخوانه . ورمز أخدانه وخلانه يتسللون قوماً بعد قوم . ويقلون يوماً بعد يوم .

الناس إخـوان من دامت له نعـم
والويل للمرء إن زلت به القـدمُ

ومازالوا كذلك حتى ذهب آخرهم مع آخر المـال ولم يبق فى صحبته غير الهم والغم والملال . وسوى الندم والسدم والبلبال . فضاقت الدنيا فى عينه . وتمنى قرب حينه. فجلس إلى أمه حزيناً باكياً . ساخطاً على دهره شاكياً

نادماً سادماً يعضُّ يديه حسرة واستكانة ومهانة

وقال ياأماه قد بلغت الفاقة غايتها . وتجاوزت الشدة نهايتها . ولم يبق عندنا مايمسك الرمق . ويطفئ هذه الحرق

فهل ترين أن نبيع هذه الدار كباقى البيوت ونصرف من ثمنها على القوت . ونتجر فى بعضه على بركة الحى الذى لايموت . فقالت يابنى إذا بعت مأوانا . فأين يكون مثوانا . وقد ربينا فى العز والسعادة . ولم تسبق لنا بالخروج فى الأزقة عادة . على أنها موقوفة من الأجداد . على الأهل والأولاد والأحفاد . ولكن أين أنت من صديق الوالد . الذى فضله على الطريف والتالد . وأخبرك عند مماته . فى الاخير من أنفاس حياته . إنه صديق حميم وكنز عظيم . فامض يابنى لداره . واستضئ فى ليل هذه الشدة بأنواره . فعسى أن يساعدك بثرائه . أو يسعدك بآرائه . فليست وصية الوالد سدى . طال عليها المدى . فقال لعن الله النسيان . لقد كنت أنسيته منذ أزمان . ولقد أشرت بالرأى السعيد . وقربت من الخير كل بعيد . وهذا هو الوقت الذى يدخر مثله لامثاله . ويحتاج فيه الى فضله وأفضاله . وقد ضاقت النفوس . ولا مخبا لعطر بعد عروس . ثم قطع حبل المقال . ونهض كانما نشط من عقال . ومضى يحدث نفسه ببلوغ الآمال . ويستبشر بخير الحال والمآل . ويقول جزى الله

الولداة خيراً وفياً . . فقد أذكرتني خلاً وفياً . ويرحم الله الوالد فانه كان بي حفياً

سأبلغ أسباب العلا باجتهاده
فليس مقال الوالدين يضيع

ويقول في نفسه الآن أقول له وأقول . وأبلغ بفضله وحسن همته المأمول . فليس بيني وبين المنى إلا رؤية محياه . حياه الله تعالى وبياه . وهلم جرا من هذه الأماني . وما تتحدث به نفس العاني من المعاني

إذا ما خلا العاني الضعيف بنفسه
أتته الأماني من جميع الجوانب

وكان قد زاره مرات . في أثناء الحظوظ والمسرات رعاية لأبيه . لا لرغبة فيه . وذاك حين كان في غمرة لعبه . وسكرة لهوه وطربه . فكان كلما رآه يجله . ويعلو عنده محله . ويلقاه بصدر رحيب . ويقابله ببشر وترحيب . فلما ضربه الدهر بمخالبه . وعضه بأنياب نوائبه . قصده كما مر يجتلي أنواره . ويجتني من روض فضله الوارف الظلال أنواره . ويشكو اليه من القله . ويستجير به من الذلة . وهو واثق بالنجاح . جازم بالفلاح

مستيقن بان صباح اليسر من ليل العسر قد لاح . فوصل إلى داره . في حالة رديئة . وهيئة مسيئة . يكاد يرثى لها الحسود. وتصفو لها القلوب السود . وكان يجيء في تجمل وجمال . وأبهة وكمال . بين أنصار وأشياع . وخدم وأتباع. والحاصل أنه تقدم البدار . ودخل الدار . وخدامها عنه منقبضون . منضون ومعرضون . لم يخاطبه أحد بينت شفه . وكأنهم ليس لهم به معرفه

ما الناسُ إلا مع الدنيا وصاحبها
فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فان وثبت
يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

نخجل من أوضاعهم . وسخط من طباعهم . إلا إنه قال هؤلاء قومٌ لئام . ليس على أمثالهم ملام . والآن يعلم رب المنزل. فيبادر وينزل. ولابدّ أنه يؤدبهم .والغالب أنه يضربهم. ووقف ينتظر من إقباله . واستقباله سالف عوائده .ويترقب تحقيق ما كان وعاه من قول والده. فما كان إلا أن أخرج الرجل رأسه من شباك قصيٍّ . وأرسل اليه على لسان غلام

خصيّ . يقول أنا غير منبسط للكلام . باذهب بسلام . فلما سمع الفتى ما سمع . كاد فؤاده ينخلع . حتى تخيل أن الارض ابتلعته . أو الريح اقتلعته . أو السماء انطبقت عليه . أو النجوم انتثرت حواليه . فان النقمة من محل النعمة أضر . والصبر من حيث يرجى الشهد أمر

واذا الشرُّ جاء من حيث يرجى
كل خير فذاك شر البلاء

والفتى وإن مسه الضر . وأصابه الفقر المرّ . الا أنه ابن نعمة وخير . تأبى نفسه الضير فكاد أن يسقط على الأرض صعقاً . وينشق صدره حنقاً وقلقاً . إلا أنه تماسك تماسكُ ذوى الألباب . وأسرعَ بالخروج يبتدر الباب سار ودموعه تسبقه . وزفراته تكاد تحرقه . وهو يقول تباً لهذا الغادر . فانه ألام من مادر . أهذا الذى كنت أرجوه . الاشاهت تِرِب فوه . فقد كذب واصفوه

ياليتنى قبل مت جوعاً
ولم أؤمل ندى لئيم

فالموت في نعمة وعز
خيرٌ من الذل للكريم

وليت رجلا حملتنى له قطعت . وعبثاً هدتنى سبيله قلعت
ياليتنى مت قبل هـذا أوليتنى لم أكن خلقت

ورجع تضطرم نيران فؤاده . وتغلى مراجل أحقاده.
فقص على الوالدة ماجرى من الرجل وخدمه • وما كان من خيبة سعيه وندمه . فسلته ببعض الكلام . وحكايات ماجرى على الكرام . وقالت يابنى

علي المرء أن يسعى لما فيه نفعه
وليس عليه أن يساعده الدهر

فلا تجزع من تقلب الدهور . وعجائب المقدور . واصبر على ما أصابك فأنت بالصبر مأمور . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور

دع المقادير تجرى فى أعنتها
ولا تبيتن الا خالى البالى
ما بين غفوة عين وانتباهتها
يقلب الله من حال الى حال

وما أحسن ما قيل

فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني

فالرزايا إذا توالت تولت

وإذا وهنت قواك وجلت

كشفت عنك جملة وتجلت

*
* *

وعاقبة الصبر الجميل جميلة

وأحسن أخلاق الرجال التصبر

ثم قالت قم فبع لنا الآن هذه الأثواب. وانتظر اللطف من مسبب الأسباب فغيض من عبراته. وخفض من زفراته. ونهض فباع الثياب. وصار يصرف من أثمانها بالحساب. وفي خلال ذلك أقبلت عجوز تسأل عن داره. وتستقصي من الجيران عن أخباره ثم. دخلت على والدته فسلمت واستغفرت لوالده المرحوم وترحمت. وقالت حضرت من الغرب منذ أيام. وكنت حضرت مرات قبل أعوام. وأحضرت بعض حلي بعتة على يد المرحوم. وأخذت مايسر الله من الربح المقسوم. والآن جئت لمثل ذلك الأمر. ومعي

من نفيس الياقوت والماس والدر . وفى إبن المرحوم إن
شاء الله الخير . وهو على كل حال أحق وأولى من الغير .
فمودة الآباء . تنتقل للأبناء . وقصدى حج البيت المحرم .
وزيارة قبر النبي المكرم . صلى الله عليه وسلم

واذا المطى بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

وأريد أن أجاور فى الحرم المطهر . وأعود انشاءالله
بعد عام أو أكثر .وسأترك ما معى ليباع .إلى أن أعود من
تلك البقاع . فخضر الفتى فكلمها وأكرمها . وأمنها بايمان
أكدها وأبرمها. فسلمته قدراً صالحا من الاحجار الغاليه .
وقومتها بأثمان منا سبة غير غاليه . لينتفع بما يقسم من الربح
المقدر . ويحافظ لها على أصل الثمن المقرر .وكتب بها وثيقة
بالاستلام. ثم ودعته وانصرفت بسلام. فعمد الفتى إلى دكان
فاكتراها .وإلى بعض ملابس يسيرة فاشتراها .وجلس فى دكانه
يبيع .حتى أتى على الجميع . فعزل أصل الثمن جانباً .وكان للخيانة
مجانباً .وصار يتجر فى الربح المباح ،وفتح عليه الكريم الفتاح
وكان فى البيع والشراء حازما. وللصدق والأمانة ملازماً . فأئتمنته
التجار على نفائس الاموال ،وانتظمت له الامور واستقامت

الأحوال . وفتح الله له أبواب الاكتساب . والله يرزق من يشاء بغير حساب . فلم يمض عليه نحو سنة . إلا وقد صار فى حالة حسنة . وهيئة مستحسنة. وكأنما كانت الشدة غفوةٌ أو سنة

اذا تضايق أمرٌ فانتظر فرجاً
فأضيق الأمر أدناه إلى الفرج

ومازال على هـذه الحال حتى استحال فساد أحواله صلاحاً . وعادت خيبة آماله فلاحاً . فصـار يشترى كل ما أمكنه . مما كان باعه من الامكنة . ويسترد بعض ما أضاع،من القرى والضياع؛والانعام والدواب ،والادوات والأثواب ، وتأخر حضور العجوز جملة أعوام ؛ وهو يدعو لها بالخير والسلامة على الدوام ، ويرى أن طلعتها كانت له طالع سعود ، وينتظرها السنة بعد السنة أن تعود ، ولا يعلم لها من خبر يؤثر ؛ ولا يرى لها من عين ولا أثر ، ثم أنه لما حسنت حاله ، وفارقه أمحاله ، وزالت نقمته ؛ وزادت نعمته ، ونسى النغمه ، واذكر بعد أمه ، تذكر ما كان من أمر الرجل الذى ساءه ، وحشى بالغيظ والحقد أحشاؤه ،

فالتهبت نار غيظه الكامن ؛ وبدت آثار غضبة من المكامن ، وقال لابد أن أقصده ، وأعرف مقصده ، وأعنفه على ما حصل ، وأعرفه بما وصل ، من لطف الله واتصل ، وأشفى النفس من ذلك القهر ، ثم لاأعود اليه مدى الدهر ، فلبس أفخر أثوابه ، وركب أحسن دوابه ، ومضى له على غلوائه ؛ فى زينته وروائه ، فقام له الخدم تبجيلاً ، وبادروا يديه تقبيلا

اذا كنت ذا ثروة فى الورى فأنت المعظم فى العالم
وحسبك من نسب صورة تخبر أنك من آدم

وقابله الرجل بقبول وإقبال ، واستقبله بالترحيب أحسن استقبال ، والفتى عابس المحيا ، وما سلم ولا حيا ، بل قال تعلم أنى ماجئت لسلام ولا كلام ، ولا قصدتك الآن لرغبة فى مرام ، ولكن لأذكرك بسوء صنيعك معى ، حين خاب فيك رجائى ومطمعى ؛ حيث قلت ما قلت ، وفعلت فعلتك التى فعلت ، ألم تر قول النبى المرسل ، أكرموا عزيز قوم ذل ، ولم تحفظ ما رواه عبد الله بن عباس ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الناس أنفعهم للناس ،

أو لم يردلك يومها على خاطر ؛ إنه ما عند الله بشيء أفضل من جبر الخواطر ، أو لم تسمع قول الشاعر :

لا تقطعن يد الاحسان عن أحد
ما دمت تقدر والأيام تارات
واشكر فضيلة صنع الله إذ جعلت
إليك لا لك عند الناس حاجات

وهلا رددتني الرد الجميل ، إذا لم تكن موضعاً لتأميل

قال الرجل : مهلا يابني مهلا ، وأهلا بعتابك وسهلا

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل

قال الفتى ليس هذا عتاب المحبة ، ولا استبقاء الصحبة ، ولكنه اللوم ، ولا اجتماع بعد اليوم ، وما ينفع العتب على الجفا ، إذا لم يكن في أصل الطبيعة وفا ، ويرحم الله من يقول :

إذا أنا عاتبت الملول فانما
أخط بأقلامي على الماء أحرفا

* * *

واذا ما القلوب لم تضمر الود فلن يعطف العتاب القلوبا

قال الرجل يابنى الصلح خير ، ولا ضر فى العفو ولا ضير ؛

من ذا الذى ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

وأى جواد لايكبو وأى صارم لاينبو

ومن يبغ الصديق بغير عيب

سيبقى الدهر ليس له صديق

فانشد الفتى

جربت دهرى وأهليه فما تركت

لى التجارب فى ود امرئ عرضاً

وقال لله در أبى العتاهية حيث قال، وما أوفقه لصورة الحال،

أنت ما استغنيت عن صا حبك الدهر أخوه

فاذا احتجت اليه ساعة مجك فوه

لو رأى الناس نبياً سائلا ما وصلوه

وأى نفع لصديق لايصدق فيه رجائى ، وصاحب لايصحبنى فى شدتى ورخائى

اذا لم تكن إن أدبر الدهر صاحبي

فكل الورى أن اقبل الدهر أصحابى

فقال الرجل يابنى لاتؤلم بهذا القول مسمعى ، وراع

طول صحبة الوالد معى . فطا لما اتفقنا فى الأخاء . وتقلبنا فى حالتى شدة ورخاء

اذا لم تجدنى للمودة موضعاً

فراع وداداً من أبيك تقدما

فقال الفتى وهل غرنى بك وضرنى من جانبك . إلا ما كان حكاه لى أبى من مناقبك . حتى حسبت الجمر تمراً . وظننت التراب تبراً . فاوردتنى شر الموارد . وعاملتنى بذلك الموضع البارد

وكنت كالمتمنى إن يرى فرجا

مع الصباح فلما أن رآه عمى

فلا أحب أن تنظر عيناى لعينك . هذا فراق بينى بينك . فقال الرجل سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً . وأكاشفك بما لم تعرف له خبراً ولا خبراً . إن عندى لك خبيئة فاعلمها . وأمانه قم فتسلمها . فظن الفتى أنها خبيئة نقود من مال الوالد أو الجدود . فقام معه . وسار وتبعه . فانتهيا لحجرة فى الدار . فيها أمرأة فى خمار . فاستقبلته حين أقبل بالسلام وتأمل الفتى جرس صوتها فى الكلام . فاذا هى العجوز

المعهوده صاحبه الجواهر المدودة . فوقف باهتاً متحيراً ساكتا وقال الرجل خذ أمانتك أيها الأمين . وأعطاه الوثيقة التى كان كتبها بخط اليمين . وأشهد فيها علي نفسه باستلام ذلك الحلى الثمين . وقال هذه المرأة أم عيالى . وتلك الجواهر التى أعطتك من مالى . وما كان ما رأيته من سوء المعاملة التى ذكرتها . وردى لك بالصورة التى أنكرتها . إلا لاقامة أودك . وارادة رشدك . فانى لما رأيتك فى ثوب رث . وفى حال غث . علمت انك أتلفت التليد والطارف . وخالفت الذى علمك الوالد من المعارف . فايقنت ان نصحك وقتها لا يفيد . وإن كل ما اعطيتك بالسهولة يبيد . فانك ربما تضيعه كالذى كان لديك . ولا يبقى منه آخر الأمر شئ فى يديك . فأردت بتلك المعاملة تقويم طبعك . وراعيت من بعد ذلك تتميم نفعك . ففعلت ما فعلت وارسلت لك مع هذه المرأة ما أرسلت . فهذه حقيقة ما صار . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . فأكب الفتى علي يده يقبلها ويلثمها . واقبل على المرأة يدعو لها ويعظمها . وقال للرجل والله لقد اجملت فأجزلت . او اكرمت فأتممت . وصيرتنى لك عبداً

رفيقاً . ولا أقول صاحباً وصديقاً. ولقد صدقت فراسة أبي فيك . واست أقدر على أني أكافيك . وهذا ثمن الحلى عندي في الكمين. وأنا عليه إلى الآن حافظ أمين. فهلم فاستلم مالك . بلغك الله آمالك . بل جميع ما في يدي ملكك إن أردت ولا أشكر نك ما حييت فان أمت

فليشكرنك في التراب عظامى

ولست أصلح فأقول لك اتخذني ولداً . فاتخذني خادما عندك وعبداً . ولئن أحياني الله بعد هذا عمراً . فستجدني صابراً ولا أعصى لك أمراً . فقال الرجل سأتخذك إبناً وولداً. وان لم أصلح فخدوما وسيداً . فقال كيف لا نصلح لذلك . وأنت السيد المالك . ولم يكن للرجل أولاده فتبناه. وشاركه بعد ذلك في غناه ومناه . وأقاما في غبطة وسرور . وحبور وحضور . حتى بلغ العمر حد النهاية . وكل شئ ينتهى لغاية

٢

المرحوم
السيد جمال الدين الافغانى

تمهيد

الفلاسفة فى عظماء العالم وكوا كب الأرض وشموس الحياة. الفلاسفة هم أولئك الذين يضيئون المعمورة وهم الذين يرشدوننا إلى طرق الصلاح والفلاح. الفلاسفة قوم يخرجون من بنات أفكارهم من العلوم مالا تقدر بأثمان وما نسميها (أزهار الاذهان) الفلاسفة هم أنبياء وقتهم ورسل دهرهم وأفصح بنى وطنهم وأبلغ رجال بلادهم. وأعلم الناس فى حينهم

ومن هؤلاء كان فقيد الشرق وبطل الفلاسفة والعلماء المرحوم (السيد جمال الدين الحسينى الافغانى) رئيس النهضة العلمية المصرية ومعلم المرحوم الامام الشيخ محمد عبده

المرحوم كسقراط والشيخ محمد عبده كأفلاطون وسعد باشا زغلول كأرسطو بمعنى أن المرحوم جمال الدين كان معلم الشيخ محمد عبده كما كان سقراط معلم أفلاطون

والشيخ محمد عبده كان معلم سعد باشا كما كان أفلاطون معلم أرسطو

وزيادة على ذلك فان السيد جمال الدين الافغانى لم يؤلف كتابا فى الفلسفة وليس هو وحده الذى أتى ذلك بل أن سقراط نفسه لم يؤلف شيئا إلا أن تلامذته نقلوا فلسفته بعد أن حفظوها .

ولد رحمه الله سنة ١٨٣٩م وهو السيد محمد جمال الدين ابن السيد صفتر ويتصل نسبه بالسيد على الترمذى المحدث المشهور ويرتقى إلى الامام الحسين بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه وكان مولده بقرية أسعد أباد من قرى كنز من أعمال كابل ببلاد الأفغان وكانت لعائلة المرحوم منزلة عالية لدى الأفغانيين ومرتبة سامية ودرجة رفيعة وما ذلك إلا لأنهم يتصلون بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وكانوا يملكون جزءاً من أراضى الأفغان ولكن دوست محمد خان جد الامير عبد الرحمن إستولي على هذه الاراضى قوة واقتداراً وأمر بأن ينقل والد جمال الدين وبعض أخوات أبيه إلى مدينة كابل وكان صاحب الترجمة وقتئذ فى الثامنة

من عمره . ولما ترك أبوه الاراضى التى كان يمتلكها وأتى إلى كابل عنى بتربيته وتثقيف ذهنه بالعلوم وطرقه دار النور تاركا وراء ظهره الجهل والظلام فتلقى مبادئ العلوم العربية من قراءة وكتابه ومطالعة وبعد أن تمكن من إجادة ذلك بدأ يتعلم العلوم العالية . كالتاريخ وعلوم الشريعة الاسلامية بمحتوياتها من حديث وتفسير وأصول وفقه وتصوف الخ والعلوم العقلية من حكمة سياسية ومنزلية وتهذيبية ونظرية طبيعية وإلهية . والمنطق والعلوم الرياضية من جبر وحساب وهندسة وهيئة ونظريات الطب والتشريح وقد ألم بهذه العلوم وهو فى الثامنة عشر من عمره . كان فى هذه الاثناء مثال النجابة والفطنة والنباهة والذكاء وكفى دليلاً على ذلك أنه تعلم كل هذه العلوم فى وقت قصير لا يكفى لتعلمها

طلب إليه البعض أن يسافر الى بلاد الهند فأجابهم إلى طلبهم ومكث فيها عاماً ونيف كان فى أثناء هذا العام يطلع على بعض العلوم الراضية على الطريقة الافرنجية الحديثة حتى إذا ما أخذ كفايته منها سافر إلى الأقطار الحجازية لكى يؤدى فريضة الحج وليعرف أيضاً عادات

ساكنى هذه الاقطار وليختبر علومهم وقد قضى عاماً ينتقل فيه من جهة الى أخرى ومن قرية الى قرية ومن مكان الى مكان حتى وصل الى مكة المكرمة وكان وصوله فى عام ١٥٧٨ م الموافق عام ١٢٧٣ هـ وقد تمكن أثناء سياحته أن يقف على عادات كثير من الامم وأخلاقهم وعلى كل شئ لديهم وبعد أن أدى فريضة الحج عاد الى بلاده فعين فى حكومتها فى عهد الامير دوست محمد خان الذى سلب أملاكهم ولما أراد هذا الامير أن يسير بجيشه ليفتح هراة سار معه جمال الدين وصار ملازماً له طول مدة الحصار والحرب حتى توفى الامير فى هذه المدة وفتحت المدينة بعد كل جهد وعناء وبعد ذلك تولى عليها ولى العهد سير على خان سنة ١٨٦٤ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان بأن يلقى القبض على إخوته لأنهم ينشرون فى الناس دعوة مناهضات ولى العهد والمؤامرة ضده وإن فى عدم إلقاء القبض عليهم مضار كثيرة للمملكة وملكها فأصدر الامير أمره بالقبض عليهم وكان للامير ثلاثة أخوة فى الجيش الذى فتح هراة وهم الامير محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين وقد انتصر

جمال الدين للامير محمد أعظم . فلما علم هؤلاء الامراء بذلك أسرعوا الى الفرار وتفرقوا في الولايات وذهب كل منهم الى الولاية متى كان مخصصاً اياها له أبوه فقامت الفتنة والثورة واشتعلت نيران الحروب الداخلية وبعد وقائع عديدة عظم أمر الامير محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن وتغلبا على عاصمة المملكة وأنقذوا والده عبد الرحمن الامير محمد أفضل الذى سبق ذكره وكان مسجونا فى سجن قزنه وجعلاه أميراً على أفغانستان ولكنه لم يلبث أن ذهب الى دار الآخرة بعد عام من توليته فتولى الامارة بدلا عنه الامير محمد أعظم خان شقيقه فعظم أمر الامير واحتد نفوذه وارتفعت منزلة صاحب الترجمة لديه فجعله فى مكانة وزيره الاول وكان يستشيره فى كل صغيرة وكبيرة ولا يأتى عملا دون أن يكون هذا برأى جمال الدين ولكن لم تلبث الحال أن انقلبت فان أحد أبناء الامير اغار بجيشه الى عمه طمعاً فى الحصول على إمارته والتحبب لدى والده اكثر من اخويه ولكنه غلب وانكسر واسر فقام الامير والده لمحاربته (اى محاربة جيش اخيه) فكانت الهزيمة ملازمة له فأسرع الامير بمغادرة هذه البلاد الى ايران

وهناك لم يكد يستقر علي مكونه عدة أشهر حتى توفى الى رحمة الله فى مدينة نيسابور

أما جمال الدين فظل باقياً فى مدينة كابل لم يمسه فيها شيءٌ وماذلك الا لخوف الامير اذا أمسه أن تتجمهر الرعية عليه احتراما لبيت جمال الدين واتصاله بالنبي عليه الصلاة والسلام الا أن هذا لم يمنع الامير من أن يغدر به سراً لاجهراً ولما أحس جمال الدين بذلك أسرع الى مغادرة هذه البلاد بأن استأذن الامير فى السفر الى الحج فأمره الامير أن لايمر ببلاد ايران خوفا من أن يلتقى هناك بالامير محمد أعظم الذى كان لايزال حيا وأمره ان يرحل من ناحية البلاد الهنديه وكان ذاك عام ١٨٦٩ أى بعد هزيمة الامير محمد أعظم بثلاثة شهور فأجابه جمال الدين الى طلبه ولما وصل الى التخوم الهندية قابلته حكومة بلاد الهند والشعب بالحفاوة والاجلال وأنزلوه المكانة اللائقة به بينهم الا أن الحكومه لم تسمح للعلماء بالاجتماع به ولا بطول اقامته فلم يمكث فيها الا شهراً ثم ركب احدى البواخر قاصداً الديار المصرية فوصل الى السويس ومنها جاء الى مصر حيث قضى فيها ٤٠ يوما تردد

فيها على زيادة الجامع الازهر الشريف ومخالطة طلبته وقد
تمكنوا من أن يستفيدوا من علمه مدة وجوده بين ظهرانيهم
ثم عزم على السفر الى الاستانة وتحول عن السفر الى الاقطار
الحجازية

وصل الى الاستانة العلية وبعد عدة أيام قليلة من
وصوله قابل الصدر الاعظم وكان يدعى عالى باشا فأنزله
الصدر الاعظم أكبر منزلة وأظهر له من الحفاوة والاحترام
مايليق بقدره ومقامه ومع كل ذلك كان الفقيد يرى وهو
مرتديا الثياب الافغانية شعار بلاده ومسقط رأسه ووطنه
وهذا الزى عبارة عن القباء والكساء والعمامة . ولم
يلبث بعد مجيئه أن علت مكانته وارتفعت ولهج الجميع
بذكره وذكر نبوغه وتفوقه في العلوم والفنون حتى كان
موضع حديث الامراء ومحور مسامرة الوزراء والكبراء
والعظماء مع أنه غريب عنهم ويتكلم لغة غير لغتهم ووطنه
غير وطنهم وملبسه غير ملبسهم وعاداته ليست كعادتهم الا
أن النبوغ لاجنسية له . ولو افتخر اليونانيون بسقراط
فأولى بنا أن نفتخر بجمال الدين . جمال الدين هو ذلك العالم

الذى رحل عن هـذه الحياة بعد ان ترك لنـا تلميـذاً من تلامذته هو المرحوم محمـد عبده الذى جعلنـاه فيلسوف مصر المسلم

ولنعد الآن الى حياة الفقيد فانه بعد ستة أشهر من وصوله الى الاستانة عين عضواً فى مجلس المعارف فأدى للاستانة بل لتركيا خدمات جليلة عظيمة واقترح طريقة لتعميم العلوم فخالفه فى الموافقة على ذلك شيخ الاسلام وفي سنة ١٨٧١ طلب اليه مدير دار الفنون أن يلقى خطبة حيال إنتشار الفنون ولـكنه اعتذر عن ذلك بأنه لايجيد التركية فألح عليه المدير فلم يمانع وأسرع بكتابة الخطبة التى سيلقيها وعرضها على نخبة من اعاظم الاتراك فاستحسنوا وهكذا ما كاد يأتى يوم هذه الخطبة حتى توافد جميع العظماء لسماع خطبته وما كاد الوقت يزف حتى اعتلى جمال الدين منصة الخطابة وألقى خطبته ببلاغة سحرت القلوب وفتنت الفتية والشيوخ فنال الاستحسان وعلا مركزه بين جميع هؤلاء

ولـكن بعض المشايخ أنكروا شيئاً من أرائه واتصل الامر بشيخ الاسلام الذى طلب من الحـكومة أن تبعده

فصدر له الامر بالابتعاد بضعة اشهر حتى تخمد نار الفتنة وتهدأ الخواطر وله ان يعود متى شاء فتركها واشار اليه بعض اصدقائه أن يأتى الى مصر فجاءها فى ٢٢ مارس سنة ١٨٧١

لم يكن رحمه الله يقصد من مجيئه الى مصر الاشتغال فيها وانما كان جل قصده التفرج على مايراه من مناظرها ومظاهرها ولم يكن يفكر فى الاقامة بها الا مدة قليلة ولكنه لما لقى المرحوم رياض باشا استماله اليه وجعلت له الحكومة مرتبا شهريا يتناوله بدون نظير وكان قدر هذا المرتب ألف قرش صاغ ونزلا خاصا لا فى مقابلة عمل أو خدمة وقد تمكن بعض الطلبة المصريين من التعرف به فوجدوا فيه أدباً جماً وأخلاقا عالية وكان يرحب بزائريه على اختلاف طبقاتهم ولا يتكلم الا باللغة العربية الفصحى ولكنه اذا رأى من جليسه عدم مقدرته على معرفة ما يقول خاطبه بلغة عربية بسيطة العبارة واذا وجده رجلا لا يعرف سوى العامية تنازع فخاطبه بها وكان لايخاطب زائريه الافيما يعود عليهم بالنفع واذا ما أراد زائره الانصراف خرج معه ليوصله بمثل ماقابله به من الحفاوة واذا خاطب الناس خاطب

كلا فى الموضوع الذى يهمه فلا يدع فرصة تمر دون أن يلقى على المسامع عظة وعبرة لأولى الالباب وكان لا يأكل كثيراً الا أنه كان يستعيض عن كثرة الأكل بتناول الشاى ولا يدخن الا نوعاً جيداً من لفافات التبغ الافرنجية أو لا يأمن لاحد هذه اللفافات خوفاً من أن يأتى له بغير طلبه فكان يشتريها بنفسه وكان حر الضمير عفوف النفس عزيزها صادق اللهجة وديعا مع أنفة وعظمة ثابت الجأش قوى العزيمة قد يؤتى به الى حيث القتل فلا يخاف. كان شجاعاً قوياً لا يغتر بالحياة ومتاعها ولا يخاف عاقبة الحاجة فلا يدخر مالا ولا يخاف عوزاً حتى قيل عنه أنه لما أبعد عن مصر كان لا يملك شروى نقير خاوى الوفاض بادى الانفاض ذهب اليه قنصل دولة إيران ونفر من كبار تجار العجم ليقدموا له بعضا من النقود ليستعين بها عند الحاجة فاعادها لهم شاكراً حسن معروفهم قائلا لهم (احفظوا المال فأنتم اليه أحوج أن الليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب) : كان عادل الطبع لين العريكة يصبر على المصائب بقدر طاقته يلاقى الصعب بصدره الرحب لا يخاف باس انسان ولا يمد يده الى مخلوق واذا

خاطب انسانا حثه على الجد والعمل حتى اذا رأى من المخاطب أذنا صاغية تركه وهو عالم أنه سيجد ويجتهد كان ذكيا نجيبا فطنا عاقلا مؤدبا مهذابا حسن الخلق قوى الملاحظة سريع الادراك حتى انه كان يعرف ماتخفيه الصدور وماتحجبه الضمائر و ماتكنه القلوب وقد تعلم اللغة الفرنسية حتى انه كان يترجم منها إلى العربية ترجمة صحيحة خالية من الغلطات والشوائب فى ثلاثة شهور بلا معلم الامن علم البادئ والحروف وكان لايفوته كتاب فى آدب الامم وفلسفتها واحوالها الأ واطلع عليه وكانت اكثر قراءته للكتب العربية والفارسية وكان يجيد من اللغات العربية والافغانية والتركية والفاريسية والروسية والفرنساوية والانجليزية وكل ما كانت تصبوا اليه نفسه هو أن يوحد كلمة الاسلام ويجمع شتات المسلمين ويجعلهم كلهم مملكة واحدة يأتمرون وينتهون بأمر واحد وقد بذل فى هذا السبيل كل مرتخص وثمين فلم يتخذ له ولم يلتمس له كسبا حتى توفى دون أن يتمم أعماله

كان اسمر اللون ممتلىء البنية اسود العينين نافظ جذاب النظر الا انه كان يقرأ كتابا الا وادناه من عينيه ولكنه

لم يستعمل النظارات قط خفيف العارضين ذو شعر مسترسل كالرسل والانبياء يرتدى جبه تنطبق على الكاحلين وعمامة بيضاء صغيرة على زى علماء الاستانة

ولما جاء الى مصر وتعرفت به الطلبة ذاع صيته وظهر هلال شهرته وبدأ يضى على العالم بعلمه وقد وجه عنايته فى بادء الامر الى محو الاوهام من عقول بنى الانسان وحمل تلامذته على الكتابة والانشاء فى الفصول الحكمية والادبية والعلميه والدينية فأجابوا سمعا وطاعة وكان فن الكتابة فى مصر من الفنون المندثرة فأحياه بحسن تدبيره وسعيه وقوة ذاكرته وكانت مدرسته هى داره فكان يعلم فيها تلامذته

وكان رحمه الله ميالا الى السياسة فخاض غمارها وكان يعلم ان مصر فى حاجة الى اناس يعلمون لمحو التداخل الاجنبي وانه لابد من تغير احوالها فانتظم فى سلك الجمعيه الماسونية وظل بها حتى صار رئيسا لها فأنشأ محفلا وطنيا تابعا للشرق الفرنسوى دعى اليه مريديه ومحبيه من العلماء والكبراء والوجهاء حتى صار عدد اعضائه مايقرب من ثلثمائه عضو

وكان شديد الكره للدولة الانكليزيه يبغضها كل البغض ويحقد عليها كل الحقد فجاهر بعدوانه لهم وحقده عليهم حتى ترجمت فصول كان قد نشرها ونشرت فى الصحف الانكليزية وقد تولى الرد عليه اللوردغلادستون فلما عظم أمر محفله داخل الانكليز الخوف ووقع فى قلوبهم الرعب فبادر قنصل انجلترا إلى بث دعوة الدسائس فى هذا المحفل ووشى به إلى الحكومة واشتدالجدال بينه وبين غلادستون والانجليز حتى بلغت مصر نهاية الارتباك وقد صرح المرحوم بأشياء قوت الساعين ضد الانجليز حتى تولى مصر المرحوم توفيق باشا فاصدر أمره بابعاده عن هذا القطر السعيد هو وتابعه أبو تراب فخرج منها موليا وجهه شطر البلاد الهندية وكان ذلك عام ١٢٩٦ ﻫ أى سنة ١٨٧٩ م وأقام في بلدة تسمى حيدر آباد الدكن وهناك كتب رسالة عن (نفى مذهب الدهريين) ولما بدأت الحوادث العرابية المشهورة فى مصر طلب اليه الحضور من حيدر آباد الدكن والزمته الحكومة الهندية بالاقامة فى كلكتا وظل فيها حتى انتهت الحركة العرابية فابيح له الذهاب الى أى بلدة يختارها

فرغب الاقامة في أوربا وكانت أول البلدان التي نزلت بها لندرة عاصمة المملكة البريطانية وقد أقام بها أياماً قلائل ثم لم يلبث ان سافر الى باريس حيث وافاه فيها تلميذه وصديقه المرحوم الامام الشيخ محمد عبده وكان في مصر وقتئذ جمعية تسمى (العروة الوثقى) فطلبت اليه ان ينشئ جريدة تدعو كلمة المسلمين وتنفيذ برنامجه فأصدر جريدة (العروة الوثقى) واسند الى الاستاذ المرحوم رئاسة تحريرها فذاعت وراجت وانتشرت انتشارا عظيما ولكن حالت الموانع دون نشرها وكان قد صدر منها ثمانية عشرة عدداً حيث اقفلت أبوابه الهند في وجهها وشدت الحكومة الانجليزية في مراقبتها ومعاقبة من يقرأها.

قضى المرحوم صاحب الترجمة في باريس ثلاثة أعوام نشر في أثنائها في جرائدها مقالات تبحث في سياسة الدولة العلية ومصر وروسيا وانكلترا وقد عربت جرائد انجلترا كثيراً من هذه المقالات وجرت له أبحاث فلسفية مع حيال موضوع العالم والاسلام شهد له فيها هذا الفيلسوف بسعة الاطلاع والعلم وقوه الحجة وصواب الراى ثم سافر

الى انجلترا وبعد ذلك عاد الى فرنسا وتعرف بكثير من فلاسفتها وعظمائها ونبرائها فأحلوه مكاناً عالياً بينهم وبين شعبهم

ثم عزم على السفر الى بلاد ايران فاستقدمه شاه الفرس اذ ذاك ناصر الدين شاه وكان قد طلب اليه الحضور على لسان البرق ليراه ويتعرف به فأجابه صاحب الترجمة الى طلبه وفى اثناء سفره تقابل بالامير ظل السلطان فقابله هذا بالحفاوه الفائقة والاجلال العظيم ايضاً حتى وصل جمال الدين الى طهران فقابله فيها الشاه مقابلة حسنه جداً واعجب به ايما اعجاب واكثر من الثناء عليه والمدح فيه حتى فى بلاطه وبين اهله وعشيرته واسند اليه وزارة الحربية تمهيداً لاسناد الصدارة اليه بعد وقت قليل وقد نال جمال الدين المنزلة الكبرى لدى علماء الفرس وامرائها واهلها حتي صار منزله كعبة القاصدين ومكانا لاجتماع الجميع يؤمون اليه ليستمعوا مايلقيه على مسامعهم من الحديث فخاف الشاه وخامره الشك والريب ظنا منه انه ربما يمتد نفوذ جمال الدين وسلطانه فأظهر الشاه لجمال الدين نفوراً فلما علم جمال الدين بالامر

ورأى منه ذلك طلب اليه أن يسمح له بمغادرة هذه الديار ترويحاً لنفسه من عناء الأعمال فأذن له الشاه بالسفر فسار إلى موسكو فى الروسيا فقوبل بالتجلة والاكرام وأكبروا قدره لما سمعوه عنه من علو شأنه وما سبق إلى مسامعهم من شهرته ثم سافر إلى بطرسبورج وهناك تعرف بعلمائها وساستها ونشر فى جرائدها مقالات ضافية عن سياسة الأفغان والروسيا والفرس والدولة العلية والانكليزية وكان لهذه المقالات دوى هائل فى عالم السياسة واتفق اذ ذاك فتح معرض باريس لسنة ١٨٨٩ فسافر إليها جمال الدين وهناك التقى بشاه الفرس فى مونيخ عاصمة بافاريا عائداً من باريس فطلب إليه الشاه أن يرافقه فأجابه جمال الدين الى دعوته وسافر معه فى معيته إلى إيران وهناك أنزله المكانة اللائقة به كأنه ليس هو ذلك الرجل الذى أبغض جمال الدين وخاف سوء العاقبة من التفاف الناس حوله وكأن أوربا قد محت من ذهنه كل هذه الأفكار الخزعبلية فكان يستشيره فى كل شئ فعز هذا على رجال الدولة فأسر الصدر الأعظم

إلى الشاه أن هذه القوانين التي يصدرها بمعونة جمال الدين نافعة للوطن إلا أنها ربما تحول دون نفوذ أوامر الشاه والالتفاف حوله فعول على أن يعيد كرة البغض لجمال الدين فلما رأى منه ذلك طلب أن يسمح له بالسفر الى بلدة شاه عبد العظيم التي على بعد (٢٠ كيلومتراً من طهران) فأذن له بذلك وتبعه جم غفير من العلماء والوجهاء والعظماء فصار يخطب فيهم ويحثهم على إصلاح وطنهم وحكومتهم ولم تمض ستة أشهر على ذلك حتى ذاعت شهرة جمال الدين فى جميع أنحاء بلاد الفرس وشاع عزمه على إصلاح إيران فخاف ناصر الدين عاقبه ذلك وأرسل إلى شاه عبد العظيم خمسمائة فارس قبضوا على جمال الدين وكان مريضاً فحملوه من فراشه وساقوه يخفره خمسون فارساً حتى حدود المملكة العثمانية. فعز ذلك على مريديه فى إيران فثاروا على الشاه حتى خاف الأخير على حياته

أما جمال الدين فظل فى البصرة إلى أن نقه من مرضه وسافر إلى لندرة وكان الانجليز قد عرفوا قدره ومكانته فأجلوه واحترموه وصاروا يدعونه إلى مجتمعاتهم السياسية

وأنديتهم العلمية ليسمعوا حديثه أما هو فكان يحدثهم عن الشاه وتصرفه فى المملكة وما آلت اليه حالتها فى عهده وكان يحث الانجليز على خلعه وفيما هو كذلك ورد اليه كتاب من المابين الهمايونى بواسطة المرحوم سفير الدولة العلية فى لندن رستم باشا فأجاب جمال الدين معتذراً بأنه فى شاغل وقتى فى إصلاح بلاده ولكن ورد اليه كتاب آخر فيه ثناء وحض على السفر فأجاب الدعوة برقياً علي أن يتشرف بمقابلة جلالة السلطان المعظم ثم يعود بعد ذلك وهكذا سافر الى الاستانة عام ١٨٩٢ فطابت له فيها الاقامة لما لاقاه من حسن معاملة المغفور له السلطان عبد الحميد خان الثانى له وحفاوتهم به وظل فيها معززاً محترما مجللاً مكبراً حتى داهمه السرطان فى فكه وكان ذلك فى أواخر عام ١٨٩٦ وامتد من فكه الى عنقه فظل يعانى الآلام عدة أشهر حتى توفى فى ٩ مارس سنة ١٨٩٧ فاحتفل بجنازته احتفالا مهيباً ودفن فى مدفن (شيخلر مزارلغى) قرب نشان طاش

المختار من نثره

المقالة الاولى

العروة الوثقى لا انفصام لها

قال الله تعالى (الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)

من الناس بل أغلب الناس من يقول آمنا (وللايمان آثار) ثم يحسبون أن الله يتركهم ويدعهم وما يتوهمون ويعاملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون فى أنفسهم قبل أن يبتليهم أيهم أحسن عملاً حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سولتها النفس وغرت بها الأمانى وأنهم تائهون فى أوهامهم يحسبون أنهم على شئ وهم خلو من كل شئ (ولما يدخل الايمان فى قلوبهم) * إلا أنهم فى حسبانهم لمخطئون * فلن يدع الله المغرور فى غيه حتى يبتليه فى دعوى الايمان (ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين) و (لئلا تكون للناس على الله حجة) * حاشا حكيما أنزل الكتب وأرسل الرسل

ووعد وأوعد وبشر وأنذر وقوله الصدق ووعده الحق أن يجازى من بنى عقيدته على خيال ليس له أثر أو ظن ليس له أساس بالسعادة السرمدية والنعيم الأبدى * أن المغتر بزعمه الحائر فى ظلمات أوهامه الذى لا يسهل عليه الايمان احتمال المشاق وتجشم المصاعب فى سبيله ليس بمعزل عن المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدى والعذاب المخلد الايمان يغلب كل هوى ويقهر كل أمنية ويدفع بالنفس إلى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواه * يقول الله تعالى وهو أصدق القائلين (لا يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والله عليم بالمتقين إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون فى بذل أرواحهم وأموالهم فى أداء فريضة الايمان حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون صدق الله وصدقت كتبه ورسله * ان للعقائد الراسخة اثاراً تظهر فى العزائم والأعمال وتأثيراً فى الافكار والارادات لا يمكن للمعتقدين أن يزيحوها عن أنفسهم ما داموا

معتقدين * هكذا حكم الايمان في جميع شؤونه وأطواره له خواص لا تفارقه ونزعات لا تزايله وصفات جليلة لا تنفك عنه وخلائق عالية سامية لا تباينه بها كان يمتاز المؤمنون في الصدر الأول وكان يعترف بعزيمتهم وعلو منزلتهم من كان يجحد عقيدتهم * نعم هم الذين صبروا في نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر إيمانهم ذهباً إبريزاً صافياً من كل غش وأعد الله لهم جزاء على صبرهم نعيماً مقيماً * ما أصعب ابتلاء الله وما أشد فتنته وما أدق حكمته في ذلك (ليميز الله الخبيث من الطيب) * نعم أن دون ابتلاء الله خلع العادات وتحمل الصعوبات وبذل الأموال وبيع الارواح * كل خطر فهو تهلكة ينبغي البعد عنها إلا في الايمان فكل تهلكة فيه فهي نجاة وكل موت في المحاماة عن الايمان فهو بقاء أبدى وكل شقاء في أداء حقوق الايمان فهو سعادة سرمدية * المؤمن يبذل ماله فيما يقتضيه الايمان ولا يخشى الفقر (وان كان الشيطان يعده الفقر) * ليس في النفقة لاداء حق الايمان تبذير ولو أتت على كل ما في أيدى المؤمنين * ان للمؤمنين حياة وراء هذه الحياة وأن له لذة

وراء لذاتها وأن لاسعادة غير مازينه الشيطان من سعاداتها هكذا يرى المؤمن إن كان الايمان مس قلبه ولو لم يبلغ الغاية من كماله * إن الفرار من محنة الله فى الايمان مجلبة للخزى الابدى * ان الفرار من مصادمة جيش الضلال وان بلغت أقصى ما يتصور موجب للشقاء السرمدى * لاسعادة إلا بالدين ودون حفظ الدين تطاير الاعناق * أن للايمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الأداء (الا على الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) * ان القيام بفرائض الايمان محفوف بالمخاطر مكتنف بالمكاره كيف لا وأول مايوجب الايمان خروج الانسان من نفسه وماله وشهواته ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه لن يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه * أول احساس يلم بنفس المؤمن انه فى هذه الدنيا عابر سبيل الى دار أخرى خير من هذه الحياة وأبقى وأول خطوة يخطوها المؤمن بذل روحه اذا دعاه داعى الايمان ولا داعى أرفع صوتا ولا أبين حجة من نداء الحق على لسان أنبيائه * لا يقبل الله فى صيانة الايمان عذراً ولا علة مادامت الرجل تمشى والعين تنظر واليد تعمل *

ان امتحان الله للمؤمنين سنة من سننه يميز بها الصادقين من المنافقين * فى كل قرن يدعوا الله المؤمنين الى قوم أولي بأس شديد (فان يطيعوا يؤتهم الله أجرا حسناً وان يتولوا يعذبهم عذابا أليما)* فميزان عدل الله منصوب الى يوم القيامة وهنالك الجزاء الأوفى فلا يحسبن الواسمون أنفسهم بسمة الايمان القانعون منه برسم يلوح فى مخيلاتهم ان عدل الله يتركهم وما يظنون (كلا انهم في كل عام يفتنون) لينظر المفرطون فى دينهم ضناً بأموالهم وصوناً لأرواحهم ماذا يكون موقعهم من علم الله هل من الذين صدقوا أو من الكاذبين * أرشد الله المؤمنين الى وسائل خيرهم وبشرهم بعاقبة أمرهم

المقالة الثانيه

قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم

شهد العيان ودلت الآثار على ماصدرمن بعض أفراد الانسان من أعمال تحير الألباب وتدهش الأفكار ينظر اليها ضعفاء الفعل فيمدونها معجزات وان لم تكن في أزمنة النبوات ويحسبونهاخوارق عادات وإن لم تكن من تحدى الرسالات وقد ينسبها الغفل الى حركات الافلاك وأرواح الكواكب وموافقة الطوالع ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف وقدفات الاتفاق عجزا عن إدراك الاسباب وفهم الصواب * أما من أتاه الله الحكمة ومنحه الهداية فيعلم أن الحكيم الخبير جل شأنه وعظمت قدرته قد أناط كل حادث بسبب وكل مكسوب بعمل وأنه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ومقدره روحانية يكون بهما مظهراً لعجائب الأمور وبهذه القدرة وتلك الموهبة مناط التكالف الشرعية وبها استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء والثواب أو العقاب عند واسع الكرم

سريع الحساب * اذا رجع البصير الى القياس الصحيح رأى في تشابه القوى الانسانية وتماثل الفطرة البشرية مايدل على تقارب العقول بل على استواء المدارك وأرشده الفكر السليم إلى أن فضل الله قد أعد كل انسان للكمال ومنحه ما يكون به مصدراً لفضائل الاعمال على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينهما الا للنظر الدقيق * هذه وقفه الحيرة* استعداد فطرى للكمال فى خلقه الانسان * ميل كلى فى كل فرد لان يفرد بالفخار ويمتاز بجلائل الآثار وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى لايخيب طالباً ولايرد سائلا اذ صدق القاصد فى قصده وأخلص السائل فى جده فما العلة فى اخلاد الجمهور الاعظم من بنى الانسان الى دنيات المنازع وقصورهم عن الوصول الى ما أعدته لهم العنايه ويستفزهم اليه الميل الغريزى خصوصا ان كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ترجوا ثوابا على الباقيات الصالحات وتخشى عقابا على ارتكاب الخطيئات وتعترف بيوم العرض الاكبر (يوم تجزى كل نفس بما كسبت) (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) * ماذا يقعد

بالنفوس عن عمل * ماذا ينحدر بها فى مزالق الزلل * إذا ردت المسببات الى أسبابها وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها وجدنا لهذا علة أم العلل ومنشأ يقرن به كل خلل (الجبن) الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناها * هو الذى قطع روابط الامم فحل نظامها * هو الذى أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم وأضعف قلوب العالين فسقطت صروحهم * هو الذى يغلق أبواب الخير في وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين * يسهل علي النفوس احتمال الذلة ويخفف عليها مضض المسكنة ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل . يوطن النفس على تلقى الاهانه بالصبر والتذليل بالجلد ويوطأ الظهور الحاسية لاحمال من المصائب أثقل مما كان يتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والاقدم . الجبن يلبس النفس عاراً دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة عليه . يرى الجبان وعر المذلات سهلا وشظف العيش فى المسكنات رفها ونعيما

من يهن يسهل الهوان عليه * ما لجرح بميت إيلام

لا بل يتجرع مرارة الموت في كل لحظة ولـكنه راض بكل حال وان لم يبق له إلا عين تبصر الاعداء ولا تر الاحباء ونفس لا يصعد إلا بالصعداء وإحساس لا يلم به الا ألم اللاءوا هذه حياته أضاع كل شئ فى القناعة بلا شئ وهو يظن أنه أدرك البغية وحصل المنية . (ماهو الجبن) انخذال فى النفس عن مصادمة كل عارض لا يلائم حالها وهو مرض من الامراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة الوجود التى جعلها الله ركنا من أركان الحياة الطبيمية وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا انه يرجع الى الخوف من الموت * الموت مال كل حى ومصير كل ذى روح * ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم ولـكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر فى كل آن ويرتقب فى كل لحظة ولا يعلمه إلا مقدر الآجال جل شأنه (وما تدرى نفس ما تكسب غـداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت) * يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم والذهول عن ما أعده الله للانسان من خـير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت

لاجله * نعم يتغفل الانسان فيظن ماجعله الله واقياً للحياة وهو الشجاعة والاقدام سبباً فى الفناء * يحسب الجاهل أن فى كل خطوة خطراً مع أن نظره واحدة لما بين يديه الآثار الانسانية ومانااله طلاب المعالى من الفوز بآمالهم وما ذللوا من المصاعب فى سيرهم تكشف له أن تلك المخاوف انما هى أوهام وأصوات غيلان ووساوس شياطين غشيته فأدهشته وعن سبيل الله صدته ومن كل خير حرمته * الجبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الايام لتغتال به نفوس الانسان وتلتهم به الامم والشعوب. هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله . وهو مبداه ولا ومنشأ لكل خصلة ذميمة. لاشقاء إلا مبداه ولا فساد إلا وهو جرثومته ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه ممزق الجماعات ومقطع روابط الصلات. هازم الجيوش ومنكس الأعلام ومهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة * ماذا يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب الوطنية * أليس هو الجبن * ماذا يبسط أيدى الادنياء لدنيئة الارتشاء * أليس هو الجبن * ربما يتوهم بعد المثال

فتأمل أن الخوف من الفقر يرجع في الحقيقة إلى الخوف من الموت وهو علة الجبن * سهل عليك أن تعتبر هذا فى الكذب والنفاق وسائر أنواع الامراض المفسدة لمعيشة ألانسان * الجبن عار وشنار على كل ذى فطرة إنسانية خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ويؤملون أن ينالوا جزاء لاعمالهم أجراً حسناً ومقاما كريماً * ينبغى أن يكون أبناء الملة الاسلامية بمقتضى أحوال دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فانها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله وأنهم لا يبتغون إلا رضاه * يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الايمان وامتحن الله به قلوب المعاندين ويقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) الخ الآيات * الاقدام فى سبيل الحق وبذل الاموال والارواح فى إعلاء كلمته أول سمة يتسم بها المؤمنون * لم يكتف الكتاب الالهى بأن تقام

الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الايدى جعل ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون المنافقون بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في اعلاء كلمة الحق والعدل الآلهى بل عده الركن الوحيد الذى لايعتد بغيره عند فقده * ولايظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الاسلامى وبين الجبن فى قلب واحد * كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام وأن عماده الاخلاص لله والتخلى عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه * المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولايفيده التبطأ عن أداء المفروض زيادة فى الاجل ولاينقصه الاقدام دقيقة منه * المؤمن من لاينتظر بنفسه الا أحدى الحسنيين اما أن يعيش سيداً عزيزاً واما أن يموت مقرباً شهيداً وتصعد روحه الى أعلى عليين ويلتحق بالكروبيين والملائكة المقربين * من يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الايمان بما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الايمان فى شئ * كل آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه فى دعوى الايمان * لهذا

نؤمل من ورثة الانبياء أن يصدعوا بالحق ويذكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الامر بالاقدام لاعلاء كلمته والنهى عن التباطئ والتقاعد فى أداء ما أوجب الله من ذلك وفي الظن ان العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الامر بذالك المعروف والنهى عن هذا المنكر) زمنا قليلاً ووعظو الكافة بتبيين معانى القرآن الشريف واحيائها فى أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثراً فى هذا الملة يبقى ذكره أبد الدهر وشهدنا لها يوما تسترجع فيه مجدها فى هذه الدنيا وهو مجد الله الاكبر *

فالمؤمنون بماورثوا عن أسلافهم وبما تمكن فى أفئدتهم من آثار العقائد لايحتاجون الا لقليل من التنبيه ويسير من التذكير فينهضون نهضة الاسود فيستردوا مفقودا ويحفظوا موجودا وينالوا عند الله مقاما محموداً

المقالة الثالثة

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا

إن للمسلمين شدة فى دينهم وقوة فى إيمانهم وثباتاً على يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل وان فى عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض * ومما رسخ فى نفوسهم ان فى الايمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين ومن حرم الايمان فقد حرم السعادتين ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء وهذه الحالة كما هى فى علمائهم متمكنة فى عامتهم حتى لو سمع أى شخص منهم فى أى بقعة من بقاع الأرض عالماً كان أو جاهلاً ان واحداً ممن وسم بسمة الاسلام فى أى قطر ومن أى جنس صبا عن دينه رأفت من يصل اليه هذا الخبر فى تحرق وتأسف يلهج بالحوقله والاسترجاع ويعد النازله من أعظم المصائب على من نزلت به وعلى جميع من يشاركه في دينه ولو ذكرت مثل هذه الحادثة فى تاريخ

وقرأها قارئهم بعد مئتين من السنين لا يتمالك قلبه من الاضطراب ودمه من الغليان ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية ما رآى كأنه يحدث عن غريب أو يحكى عن عجيب *
المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على مايدخل فى ولايتهم من البلدان وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين فى الجنس ولا المختلفين فيه وهو فرض عين على كل واحد منهم ان لم يقوم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام *
ومن فروضهم فى سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الاموال والأرواح وارتكاب كل صعب واقتحام كل خطب ولا يباح لهم المسألة مع من يغالبهم فى حال من الاحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم * وبالغت الشريعة فى طلب السيادة منهم على من يخالفهم الى حد لو عجز المسلم عن التخلص من سلطة غيره لوجبت عليه الهجرة من دار حربه وهذه قواعد مثبتة فى الشريعة الاسلاميه يعرفها أهل الحق ولا يغير منها تأويلات أهل الاهواء وأعوان الشهوات فى كل زمان * المسلمون يحس كلهم واحد منهم بهاتف يهتف

من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة وما يفرض عليه الايمان وهو هاتف الحق الذى بقى له من الهامات دينه ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين فى هذه الأيام بعضهم في غفلة عما يلم بالبعض الآخر ولا يألمون لما يألم له بعضهم فاهل (بلوجستان) كانوا يرون حركات (الانكليز) فى (أفغانستان) على مواقع أنظارهم ولا يجيش لهم جأش ولا تكون لهم نعرة على إخوانهم والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانكليز فى بلاد فارس ولا يضجرون ولا يتململون وان جنود الانكليز تضرب فى (الاراضى المصرية) ذهابا وإيابا تقتل وتفتك ولا ترى نخوة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجارى دمائهم بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم بل الذين احمرت أحداقهم من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم * تمسك المسلمين بتلك العقائد وأحساسهم بداعية الحق فى نفوسهم مع هذه الحالة التى هم عليها مما يقضى بالعجب ويدعوا الى الحيرة ويسوق الى بيان السبب نخذ مجملا منه * إن الافكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية وان كانت هى الباعثة على الاعمال وعن

حكمها تصدر بتقدير العزيز الحكيم لكن الاعمال تثبتها وتقويها تطبع الانفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق وتترتب عليه الآثار التى تلائمها * نعم ان الانسان انسان بفكره وعقائده الا أن ماينعكس الى مرآ ياعقلة من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير فكل شهود يحدث فكراً وكل فكر يكون له أثر فى داعية وعن كل داعية ينشأ عمل ثم يعود من العمل الى الفكر ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الاعمال والافكار مادامت الارواح فى الاجساد وكل قبيل هو للآخر عماد * ان للاخوة ووسائل نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها فى الاعتصاب والالتحام لولا ماانبعث عليه الضرورات وتلجىء اليه الحاجات من تعاون الانسباء والعصبة على نيل المنافع وتضافرهم على دفع المضار وبعد كرور الأيام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً يصرفه فى أثارها بقية الأجل ويكون انبساط النفس بعون القريب وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جار يامجرى الواجدانيات الطبيعية كالاحساس والجوع والعطش والرى والشبع بل اشتبه أمرء

على بعض الناظرين فعده طبيعياً فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ولم تدع ضرورات الحياة في وقت من الأوقات إلى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدها أو وجد صاحب النسب من يظاهره في غير نسبه وألجأته ضرورة إلى ذلك ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ولم يبق منها الا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات * وعلى مثال ما ذكرنا في رابطة النسب وهي أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر في الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الانساني من حيث ارتباط بعضه ببعض * إذا يصحب العقد الفكري ما جيء الضرورة أو قوة الداعية إلى عمل تنطبع عليه الجارحه وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلاً من أشكالها فلن يكون منشأ لآثاره وانما يعد في الصور العامية له رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات كما قدمنا * بعد تدبر هذه الاصول البينة والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك السبب في سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم والعلة في تباطئهم عن نصرة إخوانهم وهم أثبت الناس في عقائدهم فانه لم يبق من جامعة بين

المسلمين فى الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل* والعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لا تواصل بينهم ولا تراسل فالعالم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازى فضلا عمن يبعد عنهم والعالم الهندى فى غفلة عن شؤون العالم الأفغانى وهكذا بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا صلة تجمعهم الا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة كصداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر مما فى هيئتهم السكانية فلا وحدة لهم بل الأنساب بينهم وكل وينظر إلى نفسه ولا يتجاوز ها كانه كون برأسه* كلما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين* أليس بعجيب الا تكون سفارة للعثمانيين فى (مراكش) ولا لمراكش عند العثمانيين* أليس بغريب ألا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الافغانيين وغيرهم من طوائف فى المسلمين فى المشرق* هذا التدابر والتقاطع وارسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد وبلد

الاطفيف من الاحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم وربما يتعرفون مواقع أفكارهم بالصدفة اذا التقى بعضهم ببعض فى موسم الحجيج العام وهذا النوع من الاحساس هو الداعى الى الاسف وانقباض الصدر اذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبي عن ملته لكنه لضعفه لا ينبعث علي النهوض لمعاضدته * كانت ملة الاسلام كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال وكاد كل جزء تكون على حده وتضمحل هيئة الجسم * بدأ هذا الانحلال والضعف فى روابط الملة لاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن مرتبة الخلافة وقنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزا واشرف العلم والتفقه فى الدين واجتهاد فى أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضى الله عنهم فكثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة الى حد لم يبق له مثيل فى دين من الاديان ثم انثلمت وحدة الخلافه فانقسمت الى أقسام خلافة عباسية فى بغداد وفاطمية فى مصر والمغرب وأموية

فى أطراف الاندلس فتفرقت بهذا كلمة الامة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة الملك فسقطت هيبتها من النفوس وخرج طلاب الملك والسلطان يدائبون من وسائل القوة والشوكة ولايرعون جانب الخلافة وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور (جنكيرخان و(تيمورلنك) وحفاده وايقاعهم بالمسلمين واذلالا حتى آذهلوهم عن أنفسهم فيفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعاً وانفرد كل بشأنه وانصرف إلى مايليه فتبدد الجمع إلى آحاد وافترق الناس فرقا كل فرقة تتبع داعياً إما إلى ملك أومذهب فضعفت آثار العقائد التى كانت تدعو الى الوحدة وتبعث على اشتباك الوشيجة وصار مافى المقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازل الخيال وتحفظها الذا كرة عند عرض مافى خزائن النفس من المعلومات ولم يبق من آثارها ألا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عند ماتنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخطر الى المسامع على طول من الزمان وما هو الانوع من الحزن علي الفائت كما يكون على الاموات

من الاقارب لايدعوا إلى حركة تدرك النازلة ولا تدفع الغائلة * وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التى شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا إلى أحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذى وقع فى الملك بتمكين الاتفاق الذى يدعوا إليه الدين ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة فى سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة فيرجعون اليها فى شئون وحدتهم ويأخذون بأيدى العامة الى حيث ترشدهم التنزيل وصحيح الأثر ويجمعون أطراف الوشائج إلى معقل واحد يكون مركزه فى الاقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام حيث يتمكنون بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان والقيام بحاجات الامة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتداخل فيها بما يحيط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر

العلوم وتنوير الافهام وصيانة الدين والبدع فان أحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل نشرها بين العامة وليس يخاف على المستبصرين مايتبع هذا من قوة الامة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع مايغشاها من النوازل * إلا انا نأسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهى أقرب الوسائل وإن التفت اليها فى هذه الايام طائفة من أرباب الغيرة * ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمهم ويجمع شتيتهم فقد دارستهم التجارب ببيان لامزيد عليه وما هو بالعكير عليهم أن يبثوا الدعاة إلى من يبعد عنهم ويصالحوا بالاكف من هو على مقربة منهم ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود علي دينهم وملتهم بفائدة أو مايخشى أن يمسها بضرر ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة والرمق باق والآمال مقبلة وإلى الله المصير

المقالة الرابعة

« وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »

أظلت ولاية الاسلام مابين نقطة الغرب الأقصى الى تونكانى على حدود الصين فى عرض مابين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء أقطاراً متصلة ودياراً متجاوره يسكنها المسلمون وكان لهم فيها السلطان الذى لايغالب * أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام فأداروا بشوكتهم كرة الأرض الا قليلا ما كان يهزم لهم جيش ولا ينكس لهم علم ولا يرد قول على قائلهم * صياصيهم وقلاعهم متلاقية ومنابتهم ومغارسهم فى سهولهم (أراضيهم السهلة الواسعة) وأخيافهم (الأراضى المنحدرة عن الجبل) رابية مزدهية بأنواع النبات حالية بأصناف الأشجار يربيها صنع أيدى المسلمين ومدنهم كانت آهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران تباهى مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم وتفاخرها بشموس الفضل وبدور العلم ونجوم الهداية من رجال لهم المكان الأعلى فى العلوم

والآداب كان في نقطة الشرف من حكمائهم ابن سينا والفارابي والرازى ومن يشا كلهم وفى الغرب ابن ماجة وابن رشد وابن الطفيل ومماثلوهم ومابين ذلك أمصار تزاحم فيها أقدام العلماء فى الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية هذا فضلاً عن العلوم الشرعية التى كانت عامة فى جميع طبقات الملة * كان خليفتهم العباسى ينطق بالكلمة فيخضع لها (تقفور) الصين وترتعد منها فرائص أعظم الملوك فى (أوربا) ومن ملوكهم فى قرونهم المتوسطة مثل (محمود الغزنوى) و (ملكشاه السلجوقى) و (صلاح الدين الايوبى) وكان منهم فى المشرق مثل (تيمور الكوركان) وفى المغرب مثل السلطان (محمد الفاتح) والسطان (سليم) والسلطان (سليمان) العثمانى * أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم * كانت الاساطيل المسلمين سيادة لاتبارى فى البحر الابيض والبحر الاحمر والمحيط الهندى ولها الكلمة العليا فى تلك البحار إلى زمان غير بعيد كان مخالفوهم يدينون لملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان عليهم والمسلمون اليوم هم يملؤن تلك الاقطار التى ورثوها

عن آبائهم وعديدهم لا ينقص عن مائتى مليون وأفرادها
فى كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع
وأسرع إقداما على الموت ممن يجاورهم وهم بذلك أشد الناس
ازدراء بالحياة وأقلهم مبالاه بزخرفها الباطل * جاءهم القرآن
بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ويعيب
الاخذ بالظنون والتمسك بالاوهام ويدعو إلى الفضائل
وعقائل الصفات فأودع فى أفكارهم جراثيم الحق ويذر
في نفوسهم بذور الفضل بأصول دينهم أنور عقلا وأنبة
ذهناً وأشد استعداداً لنيل الكمالات الانسانية وأقرب
فى الاستقامة فى الاخلاق * وربما يرون لانفسهم من
الاختصاص بالشرف وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق
من إظهار شأنهم على شؤن العالم أجمع ولوكره المبطلون
لا يذعنون بسلطة لغيرهم عليهم ولا يحوم بفكر واحد منهم
أن يخضع لذى سطوة من سواهم وإن بلغت من الشدة
ما بلغت ولما بينهم من الاخاء المؤزر بمناطق العقائد يحسب
كل واحد منهم ان سقوط طائفة من بنى ملته تحت سلطة
الاجانب سقوط لنفسه * ذلك إحساس يشعر به وجدانه

ولا يجد عنه مسلياً وبما ساخ (غاص ورسب) فى نفوسهم من جذور المعارف التى أرشدهم اليها دينهم ونالوا منها النصيب الاعلى فى عنفوان دولتهم يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجدرهم بالفضل ذاك شأنهم الاول وهذا وصفهم للآن ولكنهم مع هذا كله وقفوا فى سيرهم بل تأخروا عن غيرهم فى المعارف والصنائع بعد أن كانوا فيها أساتذة للعالم وأخذت ممالكهم تنتقص أطرافها وتتمزق حواشيها مع أن دينهم يرسم عليهم أن لا يدينوا لسطة من يخالفهم ويعمل على الاستئثار بالحكم عليهم الذى يؤدى ولا شك الى المساس بدينهم واستقلالهم * هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الارض وهم العباد الصالحون * هل غفلوا عن تكفل الله لهم باظهار شأنهم على سائر الشؤون ولو كره المجرمون * هل سهوا عن أن الله اشترى منهم لاعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة * لا * لا * أن العقائد الاسلامية مالكة لقلوب المسلمين حاكمة فى إرادتهم وسواء فى العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم ثم يوجد للتقصير فى إنماء العلوم وللضعف فى القوة أسباب أعظمها تخالف

طلاب الملك فيهم لأنا بينا أن لا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء فى قبيلة واحدة السلاطين فى جنس واحد مع تباين الأغراض وتعارض الغايات فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض فأدت هذه المغالبات وهى أشبه شئ بالمنازعات الداخلية إلى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع فضلا عن التقصير فى طلب مالم ينالوا منها والانحسار دون الترقى في عواليها ونشأ من هذا ماتراه من الفاقة والاحتياج وعقبه الضعف فى القوة والخلل فى النظام وجلب تنازع الامراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم * هذا كان من أمراء المسلمين مع مافيه الضرر الفادح عند ما كانوا منفردين فى ميادين الوغى لايجاريهم فيها سواهم من الملل ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الأمراء بمرور الأزمان وتمكن فى طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع الهوى وخلت عنهم غايات المجد المؤثل وقنعوا بألقاب الامارة وأسماء السلطنة

وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان واختاروا موالاة الاجنبي عنهم المخالف لهم فى الدين والجنس ولجؤا للاستنصار به على أبناء ملتهم استبقاء لهذا الشبح البالى والنعيم الزائل

٣

المرحوم
الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

ترجمته

ولد الفقيد الكريم من أبوين فقيرين من أهالى محلة «نصره» بالغربية كان يضرب بها المثل فى الورع والشهامة واكرام الضيف

ولد رحمه الله عام ١٨٤٥ فلما بلغ السابعة من عمره ظهرت عليه علائم النجابة والذكاء فلم يشاء أبوه له أن يكون فلاحاً كأخوته بل شاء أن يعلمه فادخله إلى كتاب فى القريه فاختلف اليه الفقيد مكرهاً ولم يدع أحداً من أهل القرية إلا توسل به الى أبيه أن ينظمه فى سلك إخوته فلاحاً فكان يأبى عليه ذلك ويصر على تعليمه إصراراً . وكانت النتيجة من هذا وذاك ان الفقيد رحمه الله لبث بهذا الكتاب ثلاث سنين لا يحفظ مما يلقى الفقيه حرفا

وفى عام ١٨٤٨ أدخله أبوه إلى الجامع الاحمدى فلبث به ثلاث سنين أخرى كانت النتيجة منها مثل الأول . فلما

أعي أباه أمره أرسله إلى الجامع الأزهر فمكث فيه عامين ولا يدرى مما يلقن شيئاً

قال الأستاذ في تعليل ذلك ان الذى كان يعوقنى عن تفهم المقصود من هذه الشروح والمتون ثلاثة أمور . الأول رغبتى فى أن أكون مثل اخوتى فلاحاً وعدم وجود الوسائل التى ترغبنى فى العلم . والثانى إخلال نظام التدريس بحيث كنت أسمع الشيخ وهو يدرس فاحسبه يتكلم بلغة أجنبيه . والثالث ما اتفق عليه الطلبة من مضايقة معدهم بالأغذية الضارة مما يكون منه الاعتلال فى الجسم والفكر معاً

فلما لم يجد الاستاذ مناصاً من إرادة أبيه خلا بنفسه واجتمع بفكره وذكائه فهان الأمر بعد ذلك عليه وأصبح مايحصله رحمه الله فى يوم واحد من هذه الدروس المعقدة المشوشة مثلما يحصله سواه فى عام أو عامين . ومما يروى عن ذكائه أنه لم يمر شهر فى درس كتاب الكفراوى فى النحو حتى بدا له شئ من غلط الكتاب وتناقضه فى بعض المواضع فنبه شيخه إلى ذلك فاعترف معه به ولكنه قال إنما ندرس هذا الكتاب تبركا

ثم جاء السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر فاجتمع به الفقيد وأخذ عنه كثيراً من فلسفته وعلمه والسيد جمال الدين يقول عنه أنه أنجب تلاميذه وأنه لمصر أقوى من أسطول وأعز من جيش . وقد لبث جمال الدين بمصر عشر سنين فكان الأستاذ ساعده الأيمن لا يكتب السيد موضعاً علمياً إلا بروح الفقيد وقلمه ولا يجادل أحد الا فلسفياً الا كان فيه شيء من ذكائه وفكره ولما طرد السيد جمال الدين قال « وهو فى سجن السويس منتظراً الباخرة التى تحمله منفياً » أنى تركت الشيخ محمد عبده وكفاه لمصر عالماً

وكانت أول الوظائف التى تولاها تحرير الوقائع المصرية ثم عين مديراً للمطبوعات المصرية ولما عزل اسماعيل باشا وتولى رئاسة النظار رياض باشا قرب الفقيد اليه واتخذه مستشاراً ثم كان ما كان من الثورة العرابية فبذل جهده فى إقناع أهلها بسوء عاقبتها حتى هموا كثيراً بقتله

ثم هدأت الثورة بعد الاحتلال فاتهم الفقيد أنه كان من رجالها فنفى إلى الشام فلبث فيها عام ثم دعاه السيد جمال الدين الأفغانى إلى مدينة باريس فأصدر بها جريدة (العروة الوثقى)

ثم عاد الى مصر بعد أن تبينت براءته للحكومة المصرية فعين قاضيا جزئياً فى المحاكم الأهلية ثم مستشاراً فى محكمة الاستئناف ثم عين مفتياً للديار المصرية أما أعماله النافعة فكثيرة لايحيط بها بيان نذكر منها تدريسه القرآن الشريف بما لم يسبقه اليه أحد حتى كان شرحه له شرحاً علمياً عصريا خاليا مما حشاه السابقون. ومنها أعماله فى مجلس الشورى وهى كل حسناته هذا عدا الافتاء والتأليف الذى منها رسالة التوحيد الشهيرة وتفسير جزء (عم) وتعريب الرد على الدهريين. ولم يقف عند هذا الحد رحمه الله من الأعمال النافعة بل وجه نظره الشريف الى الازهر فاصلح ما قدر على اصلاحه وكان المرض يساوره وهو يشتغل بمشروع مدرسة تخريج القضاة الشرعيين ثم أنه كان فوق هذه الاشغال الكثيرة يكاتب المجلات باعظم الموضوعات الأدبية والعلمية مما كان له شأن كبير فى العالم كله نذكر من ذلك رده على المسيو هانوتو وعلى بعض مقالات ظهرت فى الجامعة. وله عدا ذلك كله أعمال انسانية انتفع بها خلق كثير

هذه أعماله اجمالا. أما أخلاقه فقد كان حليما واسع

الصدر كريم النفس . فما قصده ذو حاجة إلا سعى له سعيها حتى يقضيها له وما أساء اليه إنسان إلا اجتهد أن يقابل الاساءة منه بالاحسان فقد كان أنجال المشايخ فى الأزهر يتناولون مرتبات آبائهم بالوراثة فرأى الاستاذ فى ذلك غبناً للعلماء لان هذه المرتبات إنما هى وقف عليهم فأعاده الاستاذ اليهم عوض أنجال المشايخ عنها بما كان يجمعه لهم بسعية فى رأس كل شهر من أمواله وأموال محبيه . ولقد شوهد وهو ساع هذا السعى عقيب اعتزاله الازهر وقيام الشيوخ فى وجهه محاربين فأعظم بهذا كرماً وحلماً .

ولقد كان رحمه الله وطنيا بحقيقه معنى الوطنية وكان لاينىء له عزم فى كل أدوار حياته عن ترقية الامة وإصلاح شؤنها . وله حسنات غير ذلك كثيرة تدل على أن الرجل رحمه الله كان كبيرالهمه واسع العلم شديد الغيرة على الامة والبلاد

المختار من نثره

انتشار الاسلام

بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ

كانت حاجة الامم الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك لكن يندهش عقل الناظر فى أحوال البشر عند مايرى أن هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من أدناها إلى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الامم مابين المحيط الغربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد : وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقى من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل . أوذى الداعى صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله، وعذب المستجيبون

له وحرموا الرزق وطردوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيره غير تلك الدماء كانت عيون العزائم تنفجر من صخور الصبر يثبت الله بمشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب فى أنفس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهى ذوب مافسد من طباعهم فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدى الاطباء الحاذقين : * ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون :

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ويخنقوا دعوته فمازال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء والفقير للاغنياء ولاناصر له إلا أنه الحق بين الاباطيل والرشد فى ظلمات الأضاليل حتى ظفر بالعزة وتعزز بالمنعة . وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحا ولا أنالهم القهر فلاحا

ضم الاسلام فكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يمهد لها نظير فى ما ضيهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والروما فهزأوا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر فبعث اليهم البعوث فى حياته وجرى على سنته الأئمة من صحابته طلبا للأمن وابلاغاً للدعوة فاندفعوا فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم وانها لوابه على تلك الامم فى قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال أهبتها وعددها فظفروا منها بماهو معلوم . وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان الفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وأباحوا لهم البقاء على أديانهم وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ؛ وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزاء قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة .

كان الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة اتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينهم يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر وبرهانهم

الغالبة وحجتهم القوة ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد في تاريخ فتوح الاسلام إن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون علي أنفسهم العمل في نشره ويقفون مساعيهم علي بث عقائد بين المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسبتهم في المعاملة . وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا واحسانا عند ما كان يعدها الاوروبيون ضعة وضعفاً .

رفع الاسلام ما ثقل من الاقوات ورد الأموال المسلوبة إلى أربابها وانتزاع الحقوق من مغتصبيها ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم . بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل اسلام من داخل فيه الا بين يدى قاضي شرعي باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة في دنيا . وصل الأمر في عهد بعض الخلفاء الأمويين إنه كره أعمالهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان في حال أولئك الاعمال صد عن سبيل الدين لا محالة عرف عن خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمان فالبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من

الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى إسبانيا . اشتهرت حرية الاديان فى بلاد الاسلام منها هجر اليهود أوربا فراراً منها بدينهم إلى بلاد الاندلس وغيرها .

هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لما أظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا إلى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ولم يستعملوا لاكراهم عليه شيئا من القوة . وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه . فما الذى أقبل بأهل الاديان المختلفة على الاسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا وبذلوا فى خدمته مالم تبذله العرب أنفسهم !

ظهر الاسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رزائل الاخلاق وقبائح الاعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة وحقق لقراء الكتب الآلهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم

واسماعيل وأن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء أقوامها من بعدها فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا إلى البقاء على العناد فى مجاحدته فنقلوه شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين .

أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه فوجدوا لطفاً ورحمة وخيرا ونعمة : لا عقيدة ينفر منها العقل وهو زائد الايمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الأعلى ويدعوها إلى أحياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة . فاذا نزعت شهوة أوغلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الأوبة .

تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرأوا القرآن ونظروا

فى سـيرة الطاهرين من حامليـه اليهم وظهر لهم الفرق بين مالا سبيـل الى فهمه وما تـكفى جولة نظر فى الوصول الى علمه فترموا اليه خفافاً من ثقل ما كانوا عليه .

كانت الأمم تطلب عقـلا فى دين فوافاها . وتتطلع الى عـدل في ايمان فأتاها ، فما الذى يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها والمبادوة الى رغبتها ؟

كانت الشـعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشؤون الادنيـين متى عرضت دونها شهوات الأعلين فجاء دين يحدد الحقوق ويسوى بين جميع الطبقات فى احـترام النفس والدين والعرض والمال ويسوغ لامرأة فقيرة غـير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغـير بأية قيمة لامير عظيم ملطق السلطان فى قطر كبير — وكان يريده لنفسه ولـكن ليوسع به مسجداً — فلما عقد العزيمة على أخـذه مع دفع أضـعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الامير على ما كان منـه . عـدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثـل على بن أبى طالب — وهو

من نعلم من هو — أمام القاضي ويستوقفه معه للتقاضي إلى الى أن قضى الحق بينهما . هو وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذى حببه الى من كانوا أعداءه ورد اليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه.

غلب على المسلمين في كل زمن روح الافتكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد أن يحرجهم الجار ، فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ثم لا يكون الا طائفاً يحل ثم يرتحل . فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما التفته من اللين والمياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين من الاسلام وخذلانهم له وسعي الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الاسلام فى انتشاره عند حد خصوصاً فى الصين وفى أفريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه ، لا سيف وراء ولا داعي أمامها وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه . ومن هذا نعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامى واقبال الناس على

الاعتقاد به من كل ملة انما كان بسهولة تعقله ويسر أحكامه وعدالة شريعته . وبالجملة لان فطر البشر تطلب دنيا وتزداد منه ما هو أمس بمصالحها وأقرب الى قلوبها ومشاعرها وأدعى الى الطمانينة في الدنيا والآخرة . ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذاً والى العقول مخلصاً بدون حاجة الى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه . هذا كان حال الاسلام فى سذاجته الاولى وطهارته التى أنشأه الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض أطراف الارض الى اليوم .

قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه أن الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف ، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته . سبحانك هذا بهتان عظيم .

ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ماتواترت به الاخبار تواتراً صحيحا لا يقبل الريبة

فى جملته وان وقع اختلاف فى تفصيله وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم وكفا للعدوان عنهم ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا أنهم جاوروهم وأجاروهم ، فكان الجوار طريق العلم بالاسلام وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه .

لو كان السيف ينشر ديناً فقد عمل فى الرقاب للاكراه على الدين والالزام به مهدوداً كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها . وابتدأت ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر فى شدته بعد مجئ الاسلام سبعة أجيال أو يزيد . فتلك عشر قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام فى أقل من قرن : هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاؤن تحت حمايته مع غيره يفيض من الافئدة وفصاحة تتدفق عن الالسنة وأموال تخلب أموال المستضعفين ان فى ذلك لآيات للمستيقنين

جلت حكمة الله فى أمر هذا الدين سلسبيل حياة نبع
فى القفار العربية أبعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها
فجمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية . على مده حتى استغرق
ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها وتعلو أهل الأرض
بمدنيتها . زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الأرواح
فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها . قالوا كان لا يخلو من
غلب (بالتحريك) قلنا تلك سنة الله فى الخلق لا تزال بين
الحق والباطل . والرشد والغى قائمة فى هذا العالم إلى أن يقضى
الله قضاءه فيه . إذا ساق الله ربيعاً الى أرض جدبة ليحى
ميتها وينقع غلتها وينمى الخصب فيها ، أفينقص من قدره
أن أتى فى طريقه عقبة فعلاها أو بيت رفيع العماد فهوى به :
سطع الاسلام على الديار التى بلغها أهله فلم يكن بين
أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلام الله اشتغل
المسلمون بعضهم ببعض زمناً وانحرفوا عن طريق الدين
أزماناً ، فوقف وقفة القائد خذله الأنصار وكاد
يتزحزح إلى ماوراءه لكن الله بالغ أمره ، فانحدرت إلى

ديار الاسلام أمم من التتار يقودها جنكيز خان وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الاسلام دينا وحملوه إلى أقوامهم فعمهم ماعم غيرهم . جاءوا لشقوتهم فعاجوا بسعادتهم

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها واستمرت المجادلات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتي سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين مالم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة مابلغته طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها . لم جاؤا وبماذا رجعوا ؟ ظفر رؤساء الدين فى الغرب باثارة شعوبهم ليبيدوا مايشاؤن من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك الشعوب علي ما يعتقدون لأنفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد . جاء من الملوك والأمراء ذوى الثروة والأعلياء جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ماقدروه بالملايين . استقر المقام

بكثير من هؤلاء فى أرض المسلمين وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول إلى سكينتها تنظر فى أحوال المجاورين وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع. فتبينت أن المبالغات التى أطاشت الأحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة. ثم وجدت حرية فى دين وعلماً وشرعاً وصنعة مع كمال فى يقين وتعلمت أن حرية الفكر وسنة العلم من وسائل الايمان لا من العوادى عليه ثم جمعت من الآداب ماشاء الله وانطلقت إلى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها. هذا الى ما كسبه السفار من أطراف الممالك إلى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به إلى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا وأخذت الأفكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ونزعت العزائم إلى تقليد سلطان زعماء الدين والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه فى معناه، ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته

وجاءت فى إصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام إلا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد إلى مايتفق مع عقيدة الاسلام إلا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وان ماهم عليه إنما هو دينه لايختلف عنه إسما ولا يختلف معنى إلا فى صورة العبادة لاغير

ثم أخذت أمم أوروبا تفتك من أسرها وتصلح من شؤونها حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا إليه الاسلام غافلة عن عقائدها لاهية عن مرشدها وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الأجيال المتأخرة ما سبقها من أهل الازمان الغابرة . هذا طل من وابله أصاب أرضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا . ظن الرؤساء أن فى إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم وتقوية ركنهم فباؤا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم : وما بيناه فى شأن الاسلام ويعرفه كل من تفقه فيه قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم وإلى الله عاقبة الأمور .

ايراد سهل الايراد

يقول قائلون . إذا كان الاسلام إنما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق . وقال فى كتابه « الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شئ » فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟

إذا كان الإسلام موحداً ، فما بال المسلمون عددوا ؟

إذا كان مولياً وجه العبد وجهة الذى خلق السموات والأرض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شراً ، وكادوا يعدون ذلك فصلا من فصول التوحيد ؟

إذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر فى الأكوان وأطلق له العنان يجول فى ضمائرها بما يسعه الامكان ولم يشرط عليه فى ذلك سوى محافظته على عقد الايمان ، فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أخلق على نفسه باب العلم ظناً منه أنه قد يرضى الله بالجهل وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ؟ ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم

يتنسمونها ولا يجدونها ، ما بالهم بعد أن كانوا قدرة فى الجد والعمل وأصبحوا مثلاً فى القعود والكسل ؟ ماهذا الذى ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه وبين مادعاهم إليه فتركوه ؟

إذا كان الاسلام في قربه من العقول والقلوب على مابينت ، فما باله اليوم على رأى القوم نقصر دون الوصول اليه يد المتناول ،

إذا كان الاسلام يدعوا الى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لايقرأونه إلا تغنيا ورجال العلم بالدين لايعرفه أغلبه إلا تظنيا ؟

إذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال ، فما بالهم شدوها الى أغلال وأى اغلال ؟

إذا كان قد أقام قواعد العدل فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل فى الظلم ؟

إذا كان الدين في تشوف إلى حرية الارقاء ، فما بالهم قضوا قروناً فى استعباد الأحرار ؟

إذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق

والوفاء فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟

إذا كان الاسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد الغش بأن الغاش ليس من أهله ، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه

إذا كان قد حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن ، فما هذا الذى تراه بينهم فى السر والعلن والنفس والبدن

إذا كان قد صرح بان الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم ، وأن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وانهم ان لم يأمروا بالمعروف وينهو عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم وشدد فى ذلك بمالم يشدد في غيره ، فما بالهم لايتناصحون ولا يتاواصون بحق ولا يعتصمون بصبر ولا يتناصحون فى خير ولا شر ، بل ترك كل صاحبه وألقى حبله على غاربه فعاشوا أفذاذاً وصاروا فى أعمالهم أفراداً لايحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه وكان لم تجمعه معه صلة ولم تضمه اليه

وشيجة مابال الابناء يقتلون الآباء وما بال البنات يعققن الامهات . أين وشائج الرحمة. أين عاطفة الرحم على القريب أين الحق الذى فرض فى أموال الاغنياء للفقراء وقد أصبح الاغنياء يسلبون مابقى فى أيدى أهل البأساء

قبس من الاسلام اضاء الغرب كما تقول وضوؤه الاعظم وشمسه الكبرى فى الشرق وأهله فى ظلمات لايبصرون . أصح هذا فى عقل أو عهد في نقل ألم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيئاً وهم من أهل هذا الدين أول مايعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات وقواعده وأحكامه ترهات ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الافكار وبعداء الانظار ، والى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه ووسموا أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه وقوام على شرائعه كيف يجافون علوم النظر ويهزأون بها ويرون العمل فيها عبثا فى الدين والدنيا ويفتخر الكثير منهم بجهلها كان فى ذلك قد هجر منكرا وترفع عن دنيئة فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجدونه كالثوب الخلق يستحى أن يظهر به بين الناس . ومن غرته

نفســه بأنه على شيء من الدين وأنه متمسك بعـقائده يرى العقل جنة والعلم ظنة : أليس فى هذا ما يشهد الله وملائكته والناس أجمعين على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟

الجواب

وربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال وربما كان ما جاء فى الايراد قليل من كثير . وقد وصف الشيخ الغزالى رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من أهل البصر في الدين ما كان عليـه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات . ولـكن قد أثبت فى خاصة الدين الاسلامى بما يكفى للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن مع التدقيق في فهم معانيه وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمـل به بينهم . ويكفى فى الاعتراف بما ذكرته من جميـل أثره قراءة ورقات فى التاريخ على ما كتبه محققو الاسلام ومنصفو سائر الأمم . فذلك هو الاسلام.

وقـد أسلفنا أن الدين هـدى وعقل . من أحسن فى استعماله والأخذ بما أرشد اليه نال من السعادة ما وعـد الله

فى اتباعه . وقد جرب علاج الاجتماع الانسانى بهـذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الأعمى إنكاراً ولا الأصم اعراضاً . وغاية ما قيل فى الايراد أن أعطى الطبيب الى المريض دواء فصح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجتـه وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لا يتناوله . وكثـير ممـا يعودونه أو يتشفون منه ويشتمون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضـه وهو فى يأس من حياته ينتظر الموت أو تبدل سنة الله فى شفاء أمثاله .

الشيخ محمد عبده والنياشين

حدث سنة ١٨٨٩ — أي منذ ٣٥ سنة — أن حكومة أسوج ونروج أهدت وساماً الى المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي ففي ١٢ يناير (كانون الثاني) من السنة المذكورة جاءني وأنا في بيروت كتاب من المرحوم الشيخ محمد عبده ولا يزال محفوظاً بين أوراقي . وفيه رأي الامام رحمه الله في هذه النياشين فأنا أنشر الآن فقرة منه مأخوذة عن خط يد الاستاذ كما يأتي :

اعرضوا سلامي على حضرة الشيخ الجليل الشيخ ابراهيم افندي اليازجي وقولوا له قد كنت صممت بأن أهنئه على نيله نشاناً من ملك السويد والنرويج دليل على اعتراف ملك العلم لضريبه في الفضل لكني بعد ذلك رأيت أن هذه التمائم تناط في هذه الايام بصغار الناس قبل كبارهم ويعني بتعليقها ضعاف العقول منهم دون عقلائهم فكففت ذلك صواناً له عن توهم مثلي في مثله إنه ممن يعنون بزينة غير زينة الفضل أو حلية غير حلية الكمال أبلغ سلامي

أما تحرير الامام فهذه صورته :

« عزيزي حضرة الاديب الاريب سليم افندى سركيس حفظه الله . وصلتني من لدنك رواية . . . وقرأت معظمها وان شاء الله آتي على آخرها وقد أجاد منشؤها ومشى مشية مشاهير الممثلين فيها ولولا ضيق وقتي لفضلت رأيي فيما حوته . ونشرت مذهبي فيما طوته . وأني لك من الشاكرين على عنايتك بارسال مثل هذه الظروف الى . . . ولا تجعلوا ابطاء كتبي سبباً في انقطاع كتبكم . (واعرضوا سلامي على حضرة الشيخ الجليل ابراهيم افندى اليازجي وقولوا له قد كنت هممت بأن أهنئه على نيله نشاناً من ملك السويد والنرويج دليلا على اعتراف ملك العلم لضريعه في الفضل لكني بعد ذلك رأيت أن هذه التمائم تناط في هذه الايام بصغار الناس قبل كبارهم ويعني بتعليقها ضعاف العقول منهم دون عقلائهم فكففت ذلك صوناً له عن توهم مثلي في مثله أنه ممن يعنون بزينة غير زينة الفضل أو حلية غير حلية الكمال . وأعيد رجائي في مؤاخرة كتبكم وصلتنا برسائلكم » الخ محمد

مصر في ١٢ يناير سنة ١٨٨٩

« رسالة لصاحب الفضيلة المرحوم الشيخ محمد عبده »
« الى حافظ بك ابراهيم معرب كتاب البؤساء يشكره »

لوكان بي أن أشكرك لظن بالغت في تحسينه . أو أحمدكَ لرأي لك فينا أبْدَعتَ في تزيينهِ . لكانَ لقلمي مطمعَ أن يدنوَ من الوَفاء بما يوجبه حقّك . ويجري في الشكر إلى الغاية كما يطلبهُ فضلك . لكنّك لم تَقِفْ بِعرْفك[1] عندنا . بل عممت به من حولنا . وبسطته على القريب والبعيد من أبناء لغتنا . زففت إلى أهل اللغة العربية : عذراء من بنات الحكمة العربية . سحرت قومها . وملكت فيهم يومهم . ولا تزال تنبه منهم خامداً . وتهز فيهم جامداً . بل لا تنفك تحيي من قلوبهم ما أماتته القسوة . وتقوم من نفوسهم ما أعوزت فيه الاسوة[2] حكمة أفاضها الله على رجل منهم فهدى إلى التقاطها رجلا منا فجردها من ثوبها الغريب . وكساها حلة من نسج الأديب . وجلاها للناظر وحلاها للطالب . بعد ما أصلح من خلقها . وزان من معارفها حتى ظهرت محببة إلى القلوب رشيقة[3] إلى مؤانسة البصائر . تهش للفهم . وتبش للطف

(١) بفتح الريح الطيبة (٢) بالكسر والضم القدوة (٣) لطيفة

المذوق وتسابق الفكر إلى مواطن العلم فلايكاد يلحظها الوهم الاوهى من النفس فى مكان الالهام

حاول قوم من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الاعجم مبلغك فوقف العجز بأغلبهم عند مبتدأ الطريق ووصل منهم فريق الى ما يحب من مقصده ولـكنه لم يعن بأن يعيد الى اللغة العربية مافقدت من أساليبها ويرد اليها ماسلبه المعتدون عليها . من متانة التأليف وحسن الصياغة وارتفاع البيان فيها الى أعلى مراتبة . . . أما أنت فقد وفيت من ذلك مالا غاية لمريد بعده . ولا مطمع لطالب أن يبلغ حده ولو كنت ممن يقول بالتناسخ لذهبت الى أن روح ابن المقفع كانت من طيبات الأرواح .فظهرت لك اليوم فى صورة أبدع.ومعنى أنفع . ولعلك قد سننت بطريقتك فى التعريب سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك ويحملها الزمان الى أبناء ما يستقبل منه فتكون قد أحسنت الى الابناء. كما أجملت فى الصنع مع الاباء. وحكمت للغة العربية أن لايدخلها بعد من العجمة سوى ما هو فى الاسماء أسماء الاماكن والاشخاص لاأسماء المعانى والاجناس . ومثلى من يعرف قدر الاحسان

اذا عم . ويعلى مكان المعروف إذا شمل ويتمثل فى رأيه بقول الحكيم العربى

ولو أنى حبيت الخلد فرداً   لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت[١] على ولا بأرضى   سحائب ليس تنتظم البلادا

---

(١) نزل مطرها

٤

فقيد القضاء والعلم

المرحوم

أحمد فتحى زغلول

المختار من نثره

عوائد الافراح

إن حرص الانسان على منافعه الذاتية العاجلة منها والآجلة حمله على أن يستبشر لخير أعوانه ونصرائه وينقبض إذا نالهم ضيم أو مسهم سوء فعلى هذا يكون سرور الانسان عند النعمة وبؤسه عند النقمة أمراً طبيعياً لا اختيار له فيه فلا مجال للتنديد أو الثناء على مايختلج فى الفؤاد ويظهر على الجوارح فى السراء والضراء إذ لايعاب على الانسان ولا يمدح إلا بما صدر منه عن الاختيار والارادة ولأجل هذا نجعل كلامنا الآن متعلقاً باختياراته فى هذين البابين ليصادف النهى والترغيب موضعاً فنقول

ترى الناس على اختلاف مواقعهم في المديريات والاقاليم متعودين فى الأفراح أمورا كثيرة بعيدة عن الآداب ومخالفة ماجاء من أحكام الشريعة ولنأت على بعض مافى حافظتنا الآن منها معترفين بأنه قليل من كثير فى جانب مرتكباتهم التى ضيق صدر الانسان عن سردها لأننا اذا تتبعنا مايفعل قبيل

زفاف العروسين إلى مابعد الدخول نجد أموراً كثيرة نجهل بالحقيقة مبدأ ظهورها وعلة تداولها كا(لبلصة وحل الدكة وإزالة البكارة بالاصبع وصلاة ركعتين وقتئذ على قميص العروس وأن يكون بغير وضوء) وبيان ذلك ببعض التفصيل .

أن أبوى البعل هما اللذان يختاران فى الغالب زوجة لولدهما غير ملاحظين فى شروط انتقائها إلا أن تكون عشيرة تعادلهم فى الزهو والصيت أو تزيد عنهم فيهما فان ظفروا بذلك سارعوا إلى خطبتها وإن كانت خبيثة الذات قبيحة التربية وكرهوا الولد على قبولها إن لم يتحد معهما مقصداً ولا يخفى مافى ذلك من النتائج المضرة بالزوجين معاً. ويدفعان من الصداق ما يرضى أبويها ولو حملها ديناً باهظاً وكلفها حملا ثقيلا . وإذا أتى وقت الدخول بها توجهت نسوة ورجال عديدون من أقرباء الزوجة إلى منزل الزوج وأخذوا ما يكفيهم من السمن والعسل والقمح والدقيق وغيره (من غير أن تأخذهم شفقة على عويل أهل المنزل وصراخهم) ليعدوه طعاما ليلة الزفاف . وبعد ذلك إذا اراد آل الزوج أن يأتوا إليه بمخطوبية تتبعهم جموع كثيرة فئة تضرب بالسلاح . وقوم يلعبون الحطب . وجماعة

تتسابق على ظهور الخيل ولفيف من النسوة والفتيات يترنمن بأصوات يجدها السامع أنها منبعثة عن متوحشات أفريقيا الجنوبية وهذا مع اختلاط الذكور بالاناث والصغار بالكبار حتى إذا جاؤا بيت الزوجة وأرادا حملها على الهودج المعد لزفافها كان دون فتح القاعة التي هى فيها صعوبات أخفها تمنع أخيها أو خدمها عن فتحها حتى ينقده والدالزوج ما يرضيه من النقود وكذا يرضى جميع خدم ابيها وحاشيته وهذا هو المسمى عندهم (بلصة) وأما والدة الزوجة فان كسوتها يبعثها إليها الزوج قبل الزفاف بنحو شهر على شرط أن تكون مصارعة لكسوة عروسه وإلا ردت اليه وطولب بأثمن منها هذا وقبل أن تخرج بالعروس الى هودج الزفاف نعود بالقارئ إلى ما يفعل بها صبيحة اليوم التي تزف في مسائه إلى وقت الزفاف فنقول :

قبيل شروق الشمس من هذا اليوم تأتي الماشطة وتخضب قدمى العروس وكفيها بالحناء على شكل خطوط متقاطعة ثم تدعها واضعة قدميها على لبنتين من الطوب الاخضر مكشوفة الأطراف وليس عليها سوى قميص

رقيق محفوفة بلفيف من الفتيات يصرفن الوقت فى الترنمات واللعب فان حان وقت العصر غسلتها الماشطة وسرحتها وألبستها ثياب الزينة والزفاف وفى هذا الوقت تخرج نسوة عديدات من أقاربها ويمررن بأنحاء القرية مثنى وثلاث رافعات الأصوات بألفاظ يحسبنها ترنماً وكلما مررن بباب منزل وقفن قليلا لتخرج من فيه من النساء وتقابلنهن بالزغاريد وعند اجتيازه يخترن من النساء اللاتى فى المنزل أجملهن ذاتاً ويدعونها إلى بيت العروس لتحضر العشاء فتتقاطر المدعوات أفواجا إلى بيتها وكلما دخلت منهن واحدة وضعت بين ثديها ما أتت به من النقود وهذا هو المسمى (نقوط) ثم ينصرفن إلى منازلهن بعد العشاء ولا يعدن إلا وقت زفاف العروس

عود على بدء — حيث تخرج العروس من منزل أبيها تكثر طلقات الأسلحة النارية ويعلو صوت المغنيات ويشتد رعد الطبول وتنتشر الغوغاء ويتصاعد العثير المنبعث عن حوافر أفراس السباق على وجوه المارة بالموكب وثيابهم . ويزيد صراخ الأطفال الساقطين تحت أرجل الناس من

الازدحام إلى أن يقرب الموكب من بيت الزوج فيعرج سائق الجمل المقل الزوج عن الطريق الموصل إلى البيت وتتبعه الجموع حتى يرضيه الزوج بما لا ينقص عن أجرة الجمل شهرين أو ثلاثة فيرجع عن جموعه وتدخل العروس وأثاثاتها إلى منزل العريس وبعد ذلك يأخذ فى زفاف الزوج على هيئة زفاف عروسه خلا أنه لا يحمل على جمل بل يمشى راجلا وأمامه المدففون والزامرون ولكن بعض الناس الآن (وهم وجهاء البلاد) اتخذوا الذكرين (أبناء الطرق) بدلا عن الزامرين والمدففين — فهم الذين يؤلفون موكب العروس ويخترقون كثيراً من القاذورات رافعين أصواتهم بذكر الله طائفين حول البلد على غير خشوع وأدب. هذا فضلا عن كون كثير من النسوة والاطفال يقطعن صفوفهن لشدة الزحام حتى إذا بلغوا المنزل دخل الزوج قاعة العروس لفض بكارتها فيجد عندها والدتها واثنين معها على الأقل غير القابلة فيفترش قميصها ويصلى عليه ركعتين والغالب أن تأديتهما تكون على غير وضوء. وإذا نهض إلى فض البكارة مانعته أم عروسه وطلبت منه مبلغا قبل أن يحل رباط سراويل العروس

هذا مايدعى (حل الدكه) وإذ ذاك تزدحم أقدام الشبان والنساء على باب القاعة وتصطف الرجال على سطوح البيت بالبنادق والقربانات وترتفع أصوات القائمين على باب القاعة بكلمات قبيحة المدلول يعنون بها خطاب الزوج مع تصفيق شديد ورقص وتواثب عنيف كأنهم يحثونه على السرعة فى تنجيز فض البكارة ويشرحون كيفية الوصول إلى ذلك وإن تراخى ولو قليلا أخذا فى التنديد عليه فيفض بكارتها بأصبعه على مرأى من النسوة الحاضرات وقد يكون الزوج صغير السن أومرتجفاً فتنوب القابلة عنه فى ذلك (شئ قبيح لاترضيه الشريعة ولا يقبله الذوق) وبمجرد خروجه من القاعة تتدفق النار من أفواه البنادق والقربانات ثم تدخل النساء العديدات عند الزوجة ويأخذن القميص الملوث بدم البكارة ويحملنه بين أيديهن ويمرون حول البلدمرة أومرتين فرحات راقصات فيعرضنه على جميع المنازل والبيوت وينشدن فى طريقهن هذه العبارات متتابعة بصوت مرتفع (بيضتى الشاش ياعروسه) ومعناها حبذا بك من عروس لم تدنسى عرض أبويك فان هذا الدم الذى نحمله بين أيدينا يدل على

أنك مصونة العرض طاهرة الذيل وكفى أبويك شرفاً بهذا) وبعد ذلك يحفظن هذا القميص فى منزل أبويها ولا يسمحن بغسله إلا بعد شهر على الاقل ليكون حجة على طهارة عرض أبويها

وأما الزوج فانه عند خروجه من عند زوجته لا يباح له العودة اليها ثانية الا قبل الفجر ثم مع ذلك يجب أن يبكر فى القيام من النوم صبيحة تلك الليلة ليجلس مع المهنئين طول نهاره وهكذا ثلاثة أيام فى هـذه المدة تأتى اليه الأصحاب من البلدة وغيرها بالنقود كل على قدر ثروته أو الاولى يدفع اليه كل واحد قيمة ماأخذ منـه فى أفراحه السابقة وبعد هذا ينتهى الفرح ويذهب كل واحد من الناس الى عمله حتى العروس

تلك بعض عاداتنا فى الافراح حفظناها حيث ننظرها من النوافذ المطلة على شوارع المدن والبنادر وتمر بين أيدينا ونحن جلوس على قارعة طرق الأرياف و (مصاطبها) يقوم بشعارها الصغير والكبير ولا ينكرها الجاهل والعالم ولا ترى من يزجر النساء عن الاجتماع بالرجال مع مشاهدتهم ماينشأ عن الاختلاط من الفسق والفجور وكأنهم لم يعلموا

أن فض البكارة بالاصبع وكشف العمورة بحضر جمع من النسوة أمر منكر في الشرع ومستقبح بالعقل وإن القابلة تستحق العذر والتأديب على النظر إلى عورة غيرها فضلا عن أن تزيل هي غشاء البكارة بنفسها وكأنهم ذهلوا عما ورد في الشرق وأجمعت عليه الائمة من أن الصلاة بغير وضوء من المحرمات المغلظة هذا إذا لم يعتقد حل ذلك وإلا فيحكم عليه بالكفر حتى لم ينهو العروس عن صلاة تينك الركعتين بغير وضوء

وبالجملة فان كثيراً من العادات التي شرحنا هالك أن لم نقل كلها مما لا ينطبق على قاعدة شرعية أو أصل عقلي بل مصدرها أهواء فاسدة وميول سخيفة شأن كل قوم انتشر بينهم جيش الجهل وأقل من ربوعهم بدء العلم فيفعلون ماتحدثهم به شهواتهم من غير شعور بما يترتب عليه من القبيح والضار

نعم اننا نعترف بأن كثيراً من عادات الافراح السابقه قد درست مراسمها وان النبلاء في القرى والبنادر أخذوا يقللون من تلك العادات شيئاً فشيئاً وأن البعض منهم قد

قدر على أزالة معظمها أذا عمل فرحاً فى بيته ولـكن ذلك
التقليل وهذا التهذيب لايكفى بالنسبة لحالتنا الراهنة فان
قطرنا الآن يحسب فى عدد البلاد المتمدنة لاسيما وقد ملاته
الاغراب والسائحون من الامم العريقة فى التمدن فمن العار
أن يرونا مساوين فى العادات لقوم وحشيين لم تطرق آذانهم
حكم شرعية ولم يشمو رائحة المعارف ولم تنور بصائرهم أشعة
العلم فيرمونا بالجهل وينظروا الينا مستهزئين ونحن لا نقوى
على رد دعواهم لـكونهم ينطقون عن معانيه ، واما تنزه
أفراد قليلين عن تلك العادات فلا يعد عنواناً لاقليم يحتوى
على الملايين من النسمات على أنهم وأن خلعوا بعض هذه
العادات لـكنهم جددوا لهم عادات أخرى حتمت عليهم
الاسراف والتبذير وصرف المصاريف الجسيـمة في مالا
يعود بطائل مع أن تلك النقود الوافرة لو حفظت للعروسين
لـكانت رأس مايضمن لهما حسن المعيشة أن أحسنا فيـه
التصرف فهذه العوائد الجديدة ليست أقل فى الفساد من
تلك العوائد الوحشيه أصلح الله حالتنا آمين.

فوائد المصاهرة

لايخفى ان أحكام الشريعة المقدسة ترشدنا الى أن المصاهرة نوع من أنواع القرابة تلتحم به العائلات المتباعدة فى النسب وتتجدد بها صلات الألفة والاتحاد فقد حرم الله على الشخص أن يتزوج بأم زوجته أو بأنثى من أصولها وفروعها كما حرم عليه أن يتزوج بأمه أو أنثى من أصول نفسه وفروعه وكذلك حرم على زوجته أن تقترن بشىء من أصوله أو فروعه فكأنما أنزل الله كلا من الزوجين منزلة نفس الآخر حتى أنزل فروع كل منها وأصوله بالنسبة إلى الآخر منزلة أصول نفسه وفروعه فهذه حكمة بالغة أقامها الشرع لنا برهاناً واضحاً على أن اتصال إحدى العائلتين بالاخرى بطريق المصاهرة مساو لنفس القرابة النسبية فى الأحكام والحقوق والاحترام وهذا هو الموافق لما عليه طبيعة الاجتماع الانسانى ولازم لرابطة القرابة النسبية بالطبع .

فاننا قد ذكرنا فى جملتنا السابقة أن حكمة الزواج كما نص عليه علماؤنا إنما هى حفظ النوع ووقاية الوجود البشرى من خطر الفناء والزوال وبينا ان هذا إنما يكون باطمئنان كل من الزوجين إلى الآخر وتوجههما معاً إلى غاية واحدة وهى حفظ أنفسهما وحفظ نسلهما وإعداد جميع مايلزم لوقايته وانمائه وإبلاغه الحد الذى يستقل عنده بالسعى فى حفظ وجوده ويطلب من أسباب بقاء النوع ماطلبه والداه فمن كانت له إبنة وهو يميل اليها ميل الوالد إلى ولده وقضت سنة الله فى خلفه بأن يقترن بها شخص من الناس فبمقتضى محبة الوالد لابنته أن يطلب لها جميع الخيرات ويود لو بلغت أقصى درجات السعادة وحيث أن سعادتهالا يبعد أن تكون بدون سعادة زوجها الذى هى مقترنة به فمن الواجب عليه أن يميل الى زوجها ميله الى نفسها وتكون عوناً له على سعادته لتتصل بها سعادة ابنته وهكذا كل من ينتسب اليها بنوع من القرابة فعليهم أن يكونوا على طراز من المحبة لزوجها مثل ماهم عليه بالنسبة اليها فلو سعى أحد منهم فى تكديرها لامحالة

وهكذا يجب على نفس الزوج وأقربائه لنفس الزوجة وأقاربها مثل تلك الواجبات فيلزم أن تكون المصاهرة سبباً حقيقياً فى ارتباط العائلات وتوجب على كل من العائلتين للاخرى مثل ما توجب القرابة النسبية على كل من أعضاء العائلة للاخرى وعلى هذا جرت عوائد الامم التى كنا نسميها وحشية فى الازمنة السابقة ولاتزال عوائدها على ذلك إلى هذا الوقت فى الاقطار التى لم يشرفها اسم التمدن فلا تصاهر قبيلة أخرى إلا اذا أرادت أن تدخل معها تحت ميثاق واحد تكون به كل منهما عوناً للثانية على دفع جميع المكاره وجلب كافة المألوفات ولو أن دماء سفكت بين قبيلتين وعداوة تمكنت فى نفوس جميع أفرادها أزمنة طوالا ثم تلو مفارقة الحروب وكلوا من مقارعة القتال وطلبوا الراحة الدائمة والسلم المستمر لم يجدو وسيلة تقطع عرق العداوة ويستبدل برباط المحبة الا أن يتصاهر القبيلتان فتصيران كذى نسب واحد ويتناسى بذلك ما كان من أمر العداوة

وهكذا كانت السنة فى البلاد المتمدنة ولم تزل عليها

إلى اليوم يعدون المصاهرة علاقة تامة من علائق القرابة حتى أن الملوك تتخذها واسطة سياسية لاستمالة كل من الدولتين إلى الاخرى فانتقل أمر المصاهرة وعظم شأنها حتى عدت رابطة بين الامم المتنافرة كما تقضيه الطبيعة وتشير اليه الشريعة

غير أن جميع هذه الفوائد الجليلة التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى عقد الزواج والمصاهرة انما تتوفر للانسان يتمتع بها إذا دوعى فيه حكمته الاصلية واتبعت فيه الاعول الشرعية وعلم كل من الزوجين علم اليقين انه لم ينضم إلى الاخر إلا ليكون ركناً من أركان سعادته وعوناً له علي البلوغ به حد الكمال وهذا إنما يكون إذا حسنت تربية كل من الذكر والانثى وتحلت نفوسهما بالفضائل وعقولهما بالمعرفة الحقة حتى عد والذة الاجتماع وسيلة وطريقة الى ذلك الخير الكلى أعنى التعاون والتماضد على حفظ الذات الشخصية والنوع الكلي عنى حفظ الذرية فان هذا التصور يستدعى نظراً عاماً وتدلماً لغاية كلية نفسى عندها جميع الغايات الجزئية فتتوجه همة كل من المزدوجين الى جلب المصالح

ودرء المفاسد وعلى ذلك تكون غرائم الانسباء والأقرباء لكل منهما مراعاة لغاية المحبة الرحمية عينها كما بيناه أولا

لكن إذا كانت أهالى البلاد منصرفة العقول عن رعاية الحكم الالهية قاصرة الاذهان فلا تنظر إلى اللذائذ الوقتية الآتية. رأيت أسباب كلية تنقلب عندها الى أسباب عداوة ونفور ألا ترى أن المصاهرة التى وصفها الله من أقوى أسباب الارتباط وأنزلها منزلة النسب كيف صارت عند غالب الناس فى بلادنا سببا للعداوة والتقاطع الشديد والسبب فى ذلك قصور التربية ونقص العقول فقد يتزوج الرجل من عائلة فتكون عند الزواج وقبله بقليل علاقات المحبة أكيدة وصلات الوداد نامية حتى اذا مضى بعد الزواج أمد غير بعيد رأيت نوعا من المناقشات يبدو ويظهر غالباً بين أهل الزوج وزوجته فتأخذ تلك المناقشات مأخذاً من قلب الزوجة إما لسوء معاملة أهل الزوج حقيقة فان كان الاول فهو من قصور تربيتها ونقص فطرتها وان كان الثانى فهو من حماقة الاهل وفساد نظرهم وعلى كل الحالين فمتى وصل الخبر آذان أهل الزوجة أخذ من قلوبهم ماأخذ من

قلبها وهكذا يتزايد النفور حتى تنقلب تلك المودة الاولى بعداوة تقضى على كل من العائلتين المتصاهرتين بالسعى في كيد الاخرى ونكبتها وهكذا لوسرت فى أطراف بلادنا خصوصا فى الجهات الريفية لافرق فيها بين الاوساط وذوى الشرف لرأيت هذه الحالة غالبية فكأن من يريد المصاهرة يطلب أن يتخذ لنفسه أعداء ومباغضين واننا لانتأسف فى ذلك على مايكون بين العائلات أوالاشخاص من العداوات والمنافسات اذا بقى ضرروه قاصراً على مابينهما من المصالح الجزئية ولكن الضرر الكلى هو ان روح العدواة متى نفث روح الاشخاص وفشا فى نفوس العائلات تعدى شره الى المصالح العمومية وتوجهت نفوس الافراد الى حب الاختصاص بالمنافع وانصرفت الهمم عن وجهة حب الخير الانسانى فتكون أعضاء الهيئة الاجتماعية مختلفة النظام بما بين أعضائها من الفساد فتلك المنازعات الجزئية يظهر تأثيرها فى الهيئة الاجتماعية الكلية حتى اذا عرض أمر الخير أو الشر واحتاج الى التروى والتشاور فيه لتقرير مايدفع الشر أو يجلب الخير

رأيت تلك المناقشات الشخصية تحول بين الآراء والصواب وظهر ذلك النفور الذى ابتدأ من المصاهرة بما يقوم مقام النفور الذى توجبه المباينة فى الجنس أو المخالفة فى المشرب فما بالنا لا نتخذ الاسباب الطبيعية الاعتيادية التى وضعت لجمع الكلمة والتئام المتفرق وسيلة لما وضعت له معتبرين فى ذلك بما يرشد إليه الشرع القويم أو أحوال الأمم المتمدنة أو آثار القبائل المتوحشة وما بالنا ضربنا صفحاً عن مراعاة وسائل الألفة والوئام مع أننا أشد الناس احتياجاً إليها.

نعم هناك سبب واحد هو الذى أوجب هذا بل وغيره من الأمور الغير مرضية وهو نقص التربية العمومية وعدم جريانها على طريقة شرعية كاملة وأن موضوع التربية لميدان أوسع تتسابق الأقلام فيه وأننا إن شاء الله نعود اليه فهو الذى يليق أن تصرف إليه الافكار وتستجلب اليه الانظار

اختلاف الناس في المقاصد والاعمال

من الناس من تلوح له المنفعة الخصوصية ضمن منفعة عمومية فلا يلتفت إلى الاولى ويجد فى إخراج الثانية الى عالم الوجود قصد أن ينفع أبناء جنســه أو نوعه أو صنفه او وطنه على حسب تفاوت أفراد الرجال فى علو الهمم وبعد النظر ومثل هذا وان كان وجوده فى العالم الانسانى غير مستحيل الا أنه لا يكاد يوجد فى كل طبقة من طبقات التاريخ الرومانى إلا أفراد قليلين جداً ان لم نقل أن وجوده عقلى . ووجود مدينة أفلاطون الكاملة حيث وصفها بأوصاف قلما تكون متحققة بها كلها فى عالم العيان ولكننا مع ذلك لا يسعنا أن ننكر أنه وجد ويوجد فى كل زمان أناس يقربون من مثل هذا قربا يكاد يجعلهم من هذا القبيل يفضلون المصلحة العامة ويخدمونها على قدر ما يصل إليه إمكانهم ويبذلون نصحهم للكافة ويسهرون الليالى الطوال طلباً لترقية أبناء نوعهم وإنقاذهم من الهمجية ولم ينلهم من السعى فى هذا السبيل غرض من الأغراض فعاشوا فقراء وهم يحصلون لاخوانهم الفناء وقضوا حياتهم فى الخمول وهم يطيبون لجنسهم الرفعة

وماتوا كذلك غير مبالين بما لحقهم فى هذه الاعمال من المشقات والمقاومات والمعارضات وهذا القسم على كل حال نادر الوجود إن وجد منه في أمة عدد قليل بلغت به أوج الكمال وتحلت بشعائر المدنية بين الامم ورمقتها الاعين بالهيبة والاجلال ، ومن الناس من يطلب فائدة نفسه الخاصة من طريق منفعة العموم فتكبر نفسه عن أن يحصل لها شيئاً مخصوصا بدون أن ترجع منه مصلحة لمواطنيه بحيث لوعرضت له منفعة ولم يكن فى ضمن المنفعة العامة تنحى عنها ورمقها بعين الاستصغار وطلبها من الطريق الثاني علما منه بأنه فرد من الهيئة الاجتماعية تعود منافعها عليه بحكم الضرورة والوجدان إلا أن هذا القسم تختلف مطالبه فنوع منه يظهر بأول النظر أنه مقتصر على جلب العموميات وهو من يكون مطلبه وغرضه من العقليات كالشهرة والجاه وبعد الصيت وتجليد الذكر بعد الموت إلى غير مما ذلك يقصده العقلاء ولا تلتفت إليه العامة من الناس . ونوع آخر منه تظهر ثمرات جده وتعبه عليه كما تظهر على بقية اخوانه ومواطنيه الذين كان سعيه لاجلهم وكان هو واحد منهم فى اجتناء

الفائدة ومع ذلك فكل من النوعين يلتقى مع صاحبه في أنه
خدم العامة وخدم نفسه على أنه واحد منها بدون أن يفضلها
على واحد ممن عمل لاجلهم وكلما أبرز عملا من أعماله إلى عالم
الظهور وأحست العامة بلذته وفائدته زادت الناس في الاقبال
عليه فيجد فى العمل ليتمكن فى نفوسهم من المنزلة والاعتبار
وقد يكثر هذا القسم بنوعيه فى بعض البلاد فيكون بين
أهليها بمنزلة الوالد الرحيم أو المربى الشفوق يقتدى بأعماله
ويهتدى بأقواله فيأخذ عدده فى الازدياد وكلما كثرت أفراده
انتقلت الاهالى الي مرتبه جديدة من الاخلاق تحبب اليهم
منافع اخوانهم وارتقت البلاد الى درجة من التقدم والتمدن
وهكذا الا أن تبلغ غاية تكون بها فى عداد الممالك المتمدنة
وبحسب أهلوها من الامم المتقدمة ونسبة تقادم الممالك فى
التمدن هو على نسبة تباعد الازمان التى ظهرت فيها أمثال
أولئك الرجال فكلما كان زمنهم بعيد كانت الامة أعرق
فى التقدم وأدخل فى باب الانتظام .

ومن الناس من يقتصر على اجتلاب ماله فيه المنفعة
الخاصة ولا يكون من همه اصلاح العموم ولكنه مع ذلك

لا يحب ضرر غيره بحيث لو عرضت له منفعة وكانت تضر سواه تحاشاها وتباعد عنها فلا يرضى بخير نفسه إن ترتب عليه الاضرار بأحد من الناس ومثل هذا وان كانت همته قاصرة ونظره لا يتجاوز ذاته إلا أنه لا ينتج من وجوده ضرر بالعباد ولا خلل فى البلاد بل يمكن أن يقال أن هذا القسم تعود منه أيضا فائدة للعموم بانهم أن أحبوا ذواتهم لا يرضون كما قلناه بمضرة سواهم ومن كانت هذه صفاته لا يسعه إلا أن يجد ويجتهد فى أسباب الثروة والغناء لنفسه وليست الطريقة الموصلة له إلى هذه الغاية إلا طريق الاقبال على الاعمال البدنية وتوجيه الفكرة الى توسيع تجارتهم وصنائعهم ولابد لهؤلاء من أن يغبطهم مواطنوهم ومعاشروهم فيسيروا سيرهم وينسجوا علي منوالهم فتتمهد بواسطتهم سبل العمران وتتقدم الحرف وتنمو التجارة والزراعة والصناعة وينجم عن سعيهم فى منافعهم الخاصة فوائد عمومية وان كانت غير مقصودة لهم بالذات وكانوا غير ناظرين اليها فى أصل السعى المخصوص

ومن الناس من لا يحب الا ذاته فلا يبالي فى جلب

منفعته بأضرار غيره وما عليه صلح الناس أو فسد النظام بل من من هذا القسم من يحب الافساد ويجتهد فى التخريب لاجل أن ينال فائدة وهمية أو خيالية ومثل هذا من الجهل المركب والغباوة الكلية بمكان عظيم وهو الداء العضال فى جسم الهيئة الاجتماعية الذى يجب استئصاله من عالم الوجود وهو التشويه الظاهر فى وجه العالم الانسانى والعضو الاشل فى بدن الامم تلزم ملاشاته بالمرة لتستريح منه الممالك والبلدان

ولقد كانت البلاد المصرية محلاة بوجود الاقسام الثلاثة الاولى من الرجال وكانت لذلك نهضت منهجاً معتدلا سارت به بين الامم موفقة بين مصالحها من الممالك حتى ظهر فيها القسم الاخير الشرير وهو الفئة العسكرية الباغية الطاغية قاتلها الله فأخذ يسعى لمقصده المنحط غير ميال بما يلحق البلاد من الاضرار، والانفس من الهلاك، والاموال من التلف والضياع، وانتشرت أفراده فى القطر تقتلع أصول بزرته وتبتلع مادة حياته وتجتث جذور الاصلاح التى غرستها أيدى الرجال النافعين. وقد استعملوا كل طريق من طرق الشر للافساد والحصول على أغراض شخصية دنيئة لا يقصدها

الا الاشرار فعطلوا سبل التجارة وأقفلوا أبواب الصناعة وقطعوا طريق الزراعة وفتحوا أبواب الوحشية والهمجية وأبادوا النظام وأخلوا بأوضاع الترتيب التى أسسها عقول الناصحين ولكن قد أبى الله إلا أن يتم ما أراده لهذه البلاد من الخير على رغم تلك العصابة الضالة

ماهية اللغة

الفكر حركة نفسية يحتاج فى ظهوره الى معونة الجهاز المخصوص الذى يكون به الكلام. وعليه فالكلام هو حركة ذلك الجهاز المنبعثة عن مجرد الطبع أو المدفوعة بالارادة للتعبير عن حركة من حركات النفس ينتج من هذا أن الكلام يتنوع باختلاف الشارات التى تدل على الافكار وأن تلك الشارات تنقسم الى قسمين : طبيعية وصناعية

فالاولى هى التى تصدر عن الذات من حيث هى . أى بمقتضى وجودها المادى : وكل اشارات هذا القسم عرضية مثل شارات اليد والرأس والعين وبقية الاعضاء ومثل الاصوات التى ليست ألفاظاً والكلام أى النطق

والثانية خارجة عن الذات وهى تحدث من تأثير الانسان فى الماديات الخارجة عنه . وكل شارات هذا القسم جوهرية بمعنى أن لها دواما طويلا كان أو قصيراً كالأعلام والرسم والحفر والكتابة

ومما تقدم يتبين أن الكلام الطبيعى عام لكونه مفهوما بذاته من جميع الناس ومن الحيوان أحياناً كما هو الحال بالنظر

لشارات الاعضاء وأصوات الغضب أو الاستحسان من غير أن يكون هناك اتفاق سابق على مفهوم تلك الشارات

وعلى خلاف ذلك الكلام الصناعي أو الاتفاقي لانه عبارة عن مجموع الالفاظ المخصوصة الموضوعة للمعاني المخصوصة وعن التراكيب أو الصيغ الناتجة من تأليف هذه الالفاظ لتوصل الى الذهن بواسطة الاذن أو العين معاني مخصوصة متفقاً عليها

وقد يتأتى أن يكون الكلام الصناعي عاما أي أن كل الناس يدركون المراد منه كالرسم مثلا ومن هذا يتضح خطأ تعريفهم اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم

والصحيح أن اللغة هي مجموع العاديات المخصوصة التي تجري عليها كل أمة في التعبير عن أغراضها بواسطة الكلام أو الكتابة وتقدم بيان معنى الكلام .

ولا يصح اطلاق اسم اللغة على ذلك المجموع الا اذا كانت النسبة تامة بين اللفظ ومدلوله الا أن قوة اللغة متوافقة على شدة المطابقة بحيث أن الاذن أو العين ترسم في ذهن السامع أو القارئ صورة المدلول كما هي ولا يتم ذلك الا باجتماع شروط ثلاثة

(الشرط الاول) أن يكون لكل مدلول علامة خاصة به تدل عليه دائماً ولا تدل على غيره أبداً .

(الشرط الثاني) أن تكون هذه العلامة قابلة للتغير بتغير المدلول وتبعاً له

(الشرط الثالث) أنها تكون قابلة للاشتقاق كمدلولها فاذا اشتق منه مدلول اشتق منها علامة دالة عليه بالشروط عينها .

وبناء على ما تقدم تكون شروط اللغة الحقيقية بهذا الاسم ثلاثة أيضاً :

(الاول) أن يكون تعبيرها محكما وذلك عبارة عن اتمام المطابقة بين الدال والمدلول ولا سبيل الى هذا الا اذ سهل استعمال اللفظ على قدر المعنى ولم يزد المعنى عن اللفظ المستعمل لاجله وهذا الشرط صعب التوفر فما وفقت لغة حتى الآن لنوال هذه المزية اللهم الا لغة علماء الرياضة بل أن اللغات الاخرى لن تنالها أبداً .

(الثاني) الملابسة تقتضى تحليل الفكر الانساني وذلك غير ميسور عادة فى اللغات الاصلية الا نادراً

(الثالث الوضوح التام وهو يرجع للشرطين السابقين ولصناعة ترتيب الالفاظ وتركيب الجمل ترتيباً وتركيباً ينتفى معهما الابهام ويرتفع الشك والالتباس ومن اللغات ماتميل بأهلها إلى الاغرب فى التعبير وهـذا هو السبب فى ظلمتها وتعسر فهمها وكلما كان القول طبيعياً أى بسيطاً ازداد وضوحا فالبساطة هى أمثل طرق الكلام على أنها طريقة العلم والواقع هى التى يسهـل بها التعبير عن الافكار وحركات النفس كما ينبغى.

وكانى بحضراتكم وقد استنتجتم مما ذكرته الآن سطر مذهب التحوز أو الاشتراك فى اللغـة وذكرتم أنه يذهب بجمالها ويخفى من وضوح دلالتها ويجعلها ثقيلة على أهلها بعيدة المنال على طلابها من الامم الاخرى

سمعت فى الاجتماعين الماضيين كلاما كثيراً فى اللغات الاجنبية وان لها أصلا وأصولا ترجع اليها وتستمد روح التجدد منها فأهلها فى حل ممـا يفعلون وأما نحن فلا أصل للغتنا ويبنون على هذه المقدمة نتيجة هى أنه يجب علينا أن لانعرب كلمة أعجمية لنضيفها إلى لغتنا العربية

الحق أنى ما فهمت النسبة بين تلك المقدمة وهذه النتيجة فانى أنظر الى اللغة اللاتينية التى هى أصل لغات أمم أوروبا المعروفة بهذا الاسم من فرنساوية وتليانية وأندلسية وغيرها فأجدها لغات ممتازة تماما عن الاصل الفرنساوى من حيث هو لايعرف كلمة واحدة من أصل لغته وكذلك بقية من ذكرت وأرى أن كل لغة حية هى لغة مستقلة قائمة بنفسها لها قواعد خاصة بها وتراكيب وصيغ تميزها عن أصلها تماما فاذا استعار والمحدث جديد أسما من ذلك الاصل فانما هم يستعيرونه من لغة أعجمية بالنظر الى لغتهم . الاترون انهم لايقصرون الاستعارة على اللغة اللاتينية ويتعدونها الى اليونانية القديمة وأحيانا يستعيرون كلمتين وينحتونهما ويصقلونهما ويدمجون هذا المزيج فى لغتهم فيصير جزء منها ويفسحون له فى كتب اللغة محلا بين كلمتين أصليتين بحسب ترتيب حروفه الابجدية . انهم يعملون أكثر من هذا . أن لكل بلد عادات في أكلها وسكناها ولباسها وأطوارها ويتبع ذلك وجود أسماء عند قوم لمسميات لايعرفها قوم آخرون ألا أن التجارة وطرق المواصلات تنقل هذه

المسميات أو نجعلها تشاهد فى أماكنها من النازحين اليها فيرى أهل البلد مايروق لهم من بعض تلك الخصوصيات لاهل البلد الآخر ولايجدون من لغتهم نصيراً على التعبير عنه تماما لكنهم لايحارون ولا يعقدون الاجتماع تلو الاجتماع ولا يفترقون شيعا وأحزابا بل يقدمون على تناول المسمى واسمه ويدرجون عليه من ساعتهم فيمتزج بلغتهم ويعرفه الكل ويتحرونه فى حديثهم أن يلفظوه كأنهم فى نطقهم به من أهله والامثلة على ذلك لاتحصى يعرفها كل من تعلم لغة واحدة أجنبية . هم يعملون ذلك حتى فى العلوم فترى الحكيم القرنسلوى وهو يقرر مذهبه عند مايأتى على مايخالفه من مذاهب الالمان وصل الى معنى خاص بأحدهم لم يفكر أن يعبر عنه بغير لفظه الالمانى وهكذا ثم يذكر بهامش كتابه معناه

ما كان هذا ليفسد لغة من تلك اللغات ولا يثير عاطفة الحنان والاشفاق عليها بل ماازدادت لغاتهم بهذا الا طلاوة ويسراً بل تكاد هذه الطريقة تجرى عند الامم الغربية عادة لتكون الالفاظ الغريبة عن لغتهم برهانا على سعة مداركهم

ورحب صدورهم لكل نافع وكل مفيد ولتكون دليلا على مصدر المسمى ومذكورة بجزء من ترجمته

قالوا أن ذلك جائز عندهم لتماثل أحرف هجائهم واتحاد صورها وأشكالها وأما نحن فلا قبل لنا على عمل مايعملون لاختلاف أحرف هجائنا وصورها وأشكالها ولست أرى فى هذا الاعتراض ألا أنه دليل أحد أمرين فاما شعور بعجزنا عن المجاراة لفتور فى همتنا أو قصور فى معارفنا واما أن أحرف هجائنا وأشكالها وصورها محتاجة هى أيضا الى الاصلاح لنتمكن من تناول كلمات الغير بأشكال وصورة تجعلنا ننطق كلماتهم كما ينطقون وننقل عنهم كما هم عن بعضهم ينقلون

نحن اما عرب أو مستعربون واما أجانب عن لغة العرب أو مولدون فان كنا الاولين قلنا فى حقنا فى التصرف بلغتنا كما تقتضيه مصلحتنا وان كنا مستعربين فبحكم قيامنا مقام أصحاب هذه اللغة وبكوننا ورثناها عنهم بعد ان بادوا فليس من له ان ينازعنا فى استعمال ما كان مباحا لأبنائنا من قبلنا وان كنا اجانب او مولدين فمن له ان يسيطر علينا

ويحرمنا ثمرة الكد فى حفظ هذه اللغة وتفضيلها على غيرها من سائر اللغات فيلزمنا بالبقاء علي القديم ويحكم علينا بالجمود واعتقال اللسان

أخذ العرب العلوم عن أهلها ونقلوها الى لغتهم فلما وجدوا منها استعصاء فى بعض المواضع ذللوها وأخضعوا الغريب عنها لاحكامها فأيسرت ودرجت بعد الجمود فكانت لهم نعم النصير علي ادراك ما طلبوا من نور وعرفان

نسينا نحن أن زماننا غير زمانهم فكانوا أصحاب حول وطول وذوى مجد وسلطان ونحن على ما نعلم من الضعف والانزواء على أنهم فى عزهم وبعد فخارهم وتمكنهم من أنفسهم لم يعتزوا بلغتهم فنفروا من العجمة لانها عجمة بل استخدموها حيث وجدت الاخذ بها تمكيناً للغتهم وحذراً من أن يصيبها الوهن اذا قعدوا بها عن مجاراة تيار التقدم وهم أولو الرأى فيه وخوفا من أن يعيقهم الجمود فيها عن حفظ مركزهم العظيم بين الامم التى كانت تعاصرهم أيجوز لنا أن نتخلف عن السير فى طريقهم والاسترشاد بهديهم والعمل بطريقتهم بحجة أنهم انقرضوا وبادروا فلا حق لنا فى متابعة الرقى ولا يجوز أن

تخطو بعدهم خطوة الى الامام لكن من الذى استأجرنا حراساً من الحراس على هذه الوديعة وأى قوة أخضعتنا على الوقوف فى هذا الموقف موقف الاستكانة وقطع الرجاء وفقدان الهمة وانحلال العزائم أنقص فى الافهام أم قصر فى الاجسام أم جهل بأنا من البشر لنا كل حقوق الانسان

***

عليكم بالتقدم فادخلوا أبوابه المفتحة أمامكم ولا تتأخروا فلستم وحدكم فى هذا الوجود ولا تقدم لكم الا بلغتكم فاعتنوا بها وأصلحوها وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون . ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك أو التجوز ثم لا تقفوا بها موقف الجمود والعجمة تهددها على ألسنة العامة وهى لا تلبث أن تدخل على لغة الخاصة أقيموا فى وجه هذا السبيل الجارف سداً من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين

٥

المرحوم
السيد عبد الله نديم

ترجمة حياته

(ولد سنة ١٢٦١ هـ وتوفى سنة ١٣١٤ هـ)

نشأته الاولى

هو عبد الله بن مصباح بن ابراهيم وينتهى نسبه الى ادريس الاكبر من أسباط الحسن بن على بن أبى طالب . ولد بالاسكندرية سنة ١٢٦١ هـ — ١٨٤٣ م فحفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ التاسعة وكان أبوه وسطاً فى اليسار فلما رأى ذكاءه ونجابته أدخله مدرسة جامع الشيخ ابراهيم باشا فقرأ على أكابر الاشياخ فأتقن فقه الشافعى والاصول والمنطق وعلوم الادب اللسانية وهو فى سن المراهقة فأخذ من ذلك الحين يقول الشعر الرقيق والنثر المسجوع المحكم فما لبث أن سارت الامثال ببدائع آدابه وتسابق بلغاء الكتاب والشعراء إلى مطارحته وكانت الكتابة فى ذلك العهد قاصرة على السجع فابتكر المترجم فيها أساليب جديده في الانشاء فاق فيها المتقدمين وأعجز المتأخرين تشهد بذلك رسائله الادبية ومؤلفاته التى تبلغ نحو مئة مؤلف فى فنون مختلفة فقد

أكثرها سرقة أو اغتصابا اوحرقا أو اغراقا في مياه النيل كما سيأتى تفصيله

وكان رحمه الله منذ ترعرع جريئا مقداما يميل إلى ركوب الاخطار ومعاناة الشدائد سميا وراء المعالى وقد رأى أن ذلك لاينال عفواً . فكان أول مابدأ به من تلك المطالب المعجزة أنه نظر فى الوجود نظرة باحث مدقق فتبين له أن الاشتغال بالعلم ربما عاقه عن بلوغ مقصده فتعلم صناعة التلغراف واتقنها فى أقل مما يتصور من الزمن كأن الكهرباء لم توجد الالتزاحم خاطره فى السرعة فلم يمض عليه بضعة أسابيع حتى استخدم تلغرافيا (وتلغرافجيا) فى مكاتب مختلفة أهمها مكتب تلغراف القصر العالى الخاص على عهد عزيز مصر المغفور له اسماعيل باشا الخديوى الاسبق

ولم تكن وفرة الاعمال عائقة له عن التحصيل فقد كان يغتنم نوبة فراغه من العمل فيتردد الى الجامع الازهر يطالع مع بعض رفاق شبيبته الدروس التى كانوا يشتغلون بها . وأخص هؤلاء الرفاق حضرة الفاضل العلامة الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول للغة العربية بنظارة المعارف المصرية

ثم طرأ ما أوجب انفصاله عن الخدمة فاتصل بكثير من المقربين والعظماء فكانت له معهم مجالس مشهودة حضرها أفضل الشعراء والمنشئين وناظروه وطارحوه نظما ونثراً فظهر عليهم جميعا

ثم قصد المنصورة ترويحا للنفس ورأى أن التجارة خير رياضة له فأنشأ هنالك متجراً فراجت سوق بضاعته رواج آدابه ولكن كرمه تغلب على رأس المال والربح ففقدهما جميعا وكان بيته ومتجره كعبة يحج إليها رجال الادب وكانوا يتحدثون بمعجز رسائله ومحرراته نظما ونثرا

(٣) نشأته السياسية

ثم عاد إلى الاسكندرية فى أوائل سنة ١٨٧٩ وهنالك أخذت شمس حياته السياسية تبدو فكان أول سعيه فى هذا السبيل أن اجتمع بصديقيه المخلصين محمد افندى أمين باشكاتب محكمة أسيوط الاهلية ومحمود واصف افندى أحد جامعى كتاب سلافة النديم ومحرر جريدة العدل وكانا وقتئذ من مؤسسى جمعية مصر الفتاة فكان الاول نائب

رئيسها والثانى كاتم أسرارها فتعرف ليلة اجتماعه بهما بالمأسوف عليهما أديب افندى اسحق وسليم أفندى النقاش صاحبي جريدتى مصر والتجارة وتعرف بكثير من أعضاء هذه الجمعية وشرع فى بث أفكاره بما كان ينشره في تينك الجريدتين ثم رأى أن جمعية مصر الفتاة سرية يخشى عليها من الحكومة فأقنع صديقيه المشار اليهما بالانفصال عنها فانفصلا وتبعهما كثير من أعضائها ثم ذاكرهما فى أنشاء جمعية علنية تسعى فى مايعود على الوطن وأهله بالمنفعة الحقيقية فاستصوبا رأيه . وشرع منذ ذلك الحين فى تأليف قلوب أهل الثغر علماً بأن المرء قليل بنفسه كثير باخوانه فتألفت الجمعية الخيرية الاسلامية فى آخر ولاية المغفور له اسماعيل باشا والقلوب واجفة وافكاره مضطربة وقد خرست الألسنة وغلت الايدى إلى الاعناق حتى دنت ساعة الفرج بولاية المرحوم محمد توفيق باشا فقرت العيون وهدأت الافكار فقام المترجم يثبت دعائم دعوته ويبث فى الاذهان فوائد الاجتماع بلسان طلق فبرزت الجمعية الخيرية بمساعيه فى ثوب الائتلاف وتسارع أعيان الثغر ووجهاؤه للانتظام فى سلكها

وكانت هى أول جمعية اسلامية أسست في القطر المصرى وكانت ترمى الى غرض واحد هو تربية الناشئة وبث روح المعارف فيهم لترقية الافكار وتطهير الاخلاق من دنس الجهالة

فأنشأت هذه الجمعية مدرسة لتعليم الايتام وأبناء الفقراء مجانا فسعى المترجم جهده حتى أكسبها عناية امير البلاد فجعلها تحت رئاسة ولى عهده فكان ذلك ادعى لنشاط رجالها وزيادة اهتمامهم فسعوا فى توسيع دائرة المدرسة واستحضروا لها فضلاء المعلمين من العرب والافرنج واقاموا المترجم مديراً لها فوضع لها اساسا محكما وعلم فيها الانشاء وعلوم الادب فنمت وزهت حتى زاد عدد الطلاب فيها على الثلثمائة فى زمن وجيز ورتبت لها نظارة المعارف ٢٥٠ جنيها فى كل عام

فلما راى المترجم ان غرسه قدكاد يثمر استرحم المغفور له الخديوى السابق ان ينعم على الجمعية بالمدرسة البحرية لاتساعها وجودة موقعها فاجابه الى ما طلب

ولقد بلغت هذه المدرسة من الشهرة وبعد الصيت على

قصر المدة مالم يبلغه غيرها فى أزمان متناولة ونالت من التفات المرحوم توفيق باشا لرفع قدرها ونشاطها وزادها زهواً ونماء مع ماكان يبذله صاحب الترجمة من العناية فى عقد الحفلات العامة في بهرة المدرسة يحضرها كبار القوم وسراتهم فيسمعون المطرب والمغرب منه ومن تلامذته ثم ينصرفون ولا حديث لهم الا ترداد ماسمعوه من العبارات الآخذة بمجامع القلوب

وفى تلك الاثناء مثل المترجم بالاسكندرية حالة البلاد وكيف يكون الوصول الى الشهامة والمروءة بروايتيه المشهورتين باسم « الوطن » و « العرب » مثلهما هو وتلامذته فى ملهى زيزينيا بحضرة ساكن الجنان الخديوى السابق فكان لهما فى نفسه من حسن الوقع مابعثه على أن يدفع من ماله الخاص مئة جنيه مساعدة للجمعية

ولكن الحسد جر بعض ذوى النفوذ الى الايقاع بالنديم ففصل عن الجمعية واقيل من ادارتها

وكان قبل ذلك قد ترك الكتابة الادبية واشتغل

بالتحرير السياسي على الاسلوب الحديث بلا سجع ولا تقفية فكان يحرر جريدتى « المحروسة » و « العصر الجديد » اللتين صرح للمرحوم سليم افندى النقاش باصدارهما عقيب الغاء «التجارة ومصر » وابعاد المرحوم أديب افندى اسحق الى خارج مصر فجاء فيهما بالمعجب والمطرب

وما زال كذلك حتى استدعى صاحبهما من بيروت الكاتبين الفاضلين سليم افندى عباس والمرحوم فضل الله الخورى فترك لهما أمر هاتين الجريدتين وأنشأ (التنكيت والتبكيت) وهى جريدة اسبوعية ظاهرها هزل وباطنها جد فأودعها مالم يسبقه أحد من كتاب العرب اليه

ثم استبدلها بالطائف على ماقضت به المناسبات الزمانية قبيل الثورة العرابية وكانت (الطائف) سياسية محضة بلغت من الشهرة مالم تبلغه جريدة قبلها من التأثير على الاذهان . ثم اغتصبها منه أمراء الجند أثناء الثورة ولم يدعوا له منها غير الاسم فكانوا ينشئون فيها مايشاؤون دون أن يقدر على رد واحد منهم حتى انطفأت جمرة تلك الثورة فاختفى

أما قيامه بنصرة الحزب الوطنى فسببه إنه لاقى فى معاملة

الحكومة له ولغيره مايدل على تفضيلها للاجنبي لخدمتها على الوطني واتفق ظهور نيران الثورة فاصابت منه هوى في الفؤاد فتمكنت لانه سمع رجالا تنادي بطلب الاصلاح وتعقد الاجتماعات العلنية مجاهرة بمقاصدها في أهم الصحف حتى اتفقت الآراء على أن في مصر حزباً وطنياً لاهم له إلا انتشال البلاد من وهدة الخراب فكانت رسل الحزب العسكرى تتردد على المترجم ورؤساؤه يكرمونه ويعظمونه فما زالوا به حتى انضم إليهم فوسموه بخطيب الحزب الوطني واتخذوا جريدته مجالا لاقلام كثيرين منهم ومظهراً لافكارهم ولكنه كان يتأفف من وقوعه في تلك الورطة فاذا خلا باحد من أخصائه أظهر له حقيقة مايضمر وأنبأه بمصير تلك الحال

ولم يمض بضعة أسابيع حتى هاجت القاهرة وماجت إذ أنبأها البرق بضرب الانكليز للاسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وانتشاب بينهم وبين عرابى فقام المترجم مع محمود باشا سامى البارودى وغيره من رؤساء الجند المتخلفين الى الاسكندرية فوجدوا الجيش المصرى يتأهب لمغادرتها

الى كفر الدوار بعد أن صارت معالمها دوارس فياتا (هو وسامى) فى منزل المترجم فلما كانت مايسمونه بواقعة التل الكبير فى ١٥ من شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ وقت السحر فر عرابى وأخوه وعلى الروبى وتبعهم المترجم فجاءوا القاهرة فى الساعة الرابعة بعد الظهر وساروا تواً إلى قصر النيل مركز نظارة الحربية إذ ذاك فتألف وفد ليسيروا الى الاسكندرية يلتمسون العفو من الخديوى والنديم فى جملتهم ولكنه لم يصل الاسكندرية بل عاد من كفر الدوار واختفى من ذلك الحين فقضى عشرة سنوات مختفياً بمديرية الغربية بين ميت الغرقا والعتوة والجميزة وغيرها فيتنكر تارة بزى الدراويش وطوراً بزى المغاربة أو غيرهم والحكومة تبث العيون والارصاد للقبض عليه وهو أقرب إليها من حبل الوريد فلما أعيتها الحيلة جعلت لمن ينبئها بمكانه مكافأة مقدارها الف جنيه وكان العارفون بمكانه كثيرين ولكنهم حافظوا على ولائه فأخفوه مكرماً معززاً حتى قبض عليه فى شهر نوفمبر سنة ١٨٩١ أو اخر ولاية المرحوم توفيق باشا فجيء به الى طنطا حيث حبس أياماً وسئل عن موجب اختفائه فأوضحه بما

لايخرج عما تقدم فعفا الجناب الخديوى عنه ولكنه أمر بابعاده إلى حيث يشاء من البلاد غير المصرية . فاختار يافا من ثغور فلسطين فسافر اليها باكرام وأقام هناك مدة ثم أزمع السياحة فى تلك البلاد المقدسة فخرج من يافا فى مارس سنة ١٨٩٢ مع صديق له الى جبل الطور المسمى جبل جارزيم وزارا مقام العزيز هناك وقبور كثيرين من الانبياء ومرا بأماكن كثيرة من جملتها نابلس ومدينة الخليل وبيت لحم والمسجد الاقصى ثم عادالى يافا

وفي تلك السنة (١٨٩٢) عفى عن المترجم فعادمن يافا الى القاهرة وظل متردداً بينها وبين الاسكندرية أكثر من شهر ثم اتخذ الاولى موطناً وأنشأ بها مجلته العلمية الادبية التهذيبية الاستاذ فنالت من الشهرة والانتشار فى شهور مالم تنله سواها باعوام وكان لها تأثير شديد فى أفكار الامة على اختلاف نحلها

ثم ألغيت لاسباب يعلمها كل متدبر لان العهد بها غير بعيد . وكلف المترجم بالخروج من مصر فغادرها ثانية الى

يافا ودفعت له الحكومة المصرية أربعمائة جنيه يعتد بها لسفره ورتبت له ٢٥ جنيهاً كل شهر على شرط أن لا يكتب شيئاً في الجرائد يختص بسياسة مصر فلبث أربعة أشهر فى يافا . ثم أبعد منها بارادة سلطانية فرجع الى الاسكندرية وأقام فيها أياماً قابل فى خلالها صاحب الدولة الغازى مختار باشا المندوب السلطانى العالى فساعده هذا على المسير الى الاستانة فسافر اليها . وصدرت الارادة السلطانية بتعيينه مفتشاً للمطبوعات بالباب العالى ورتبت له ٤٥ جنيهاً مجيديا كل شهر فوق ماكان يتقاضاه من الحكومة المصرية وكان ينفقها كلها فى سبيل الخيرات والبر بالاهل والاقارب والاصدقاء

وقد نال لدى المقام السلطانى الحظوة الكبرى وتعرف بكثير من الوزراء وأرباب المظاهر العلمية ولكنه اختص بالملازمة والمودة للامام العلامة الفيلسوف السيد جمال الدين الافغانى فاتصلت بينهما أسباب الالفة وتمكنت منهما روابط الاتحاد حساً ومعنى . وقد بلغ تعلق السيد جمال الدين به وجميل اعتقاده فيه أنه أصبح وأمسى يعجب بقوة حجته فى

المناظرة والجدل وسرعة بديهيته فى التحرير حتى صرح فى عدة مجالس بأنه مارأى مثل النديم طول حياته في توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة المعارضة ووضوح الدليل ووضع الالفاظ وضعا محكما بازاء معانيها إن خطب أو كتب

وقد كان يود الرجوع الى مصر ليقضي بها بقية أيامه ولكن داهمه السل الرئوى فى ١٤ اكتوبر سنة ١٨٦٦ فأمر جلالة السلطان الاعظم أن يحتفل بمشهده على نفقة الجيب الشاهانى الخاص فسار أمام نعشه فرقتان من الجيش وفرقة من الشرطة وتلامذة المكتب السلطانى وعدة من الوجوه والكبراء والعلماء يتقدمهم العلامة السيد جمال الدين الافغانى والمولى الشيخ محمد الظافر شيخ السلطان والشهم الكريم المفضال السيد عبد الرحمن الجزولى حتى دفنوه فى باشكطاش:

ولقد مات المترجم ولم يورث أهله الا الحزن والعناء لانه كان يقبض مرتبه من مصر والاستانة فلا يمضى عليه بضعة أيام حتى يفرغ من توزيعه على الاقارب والاباعد دون نفسه

أما أخلاقه فانه كان براً بوالديه وذوى قرابته وقصاده

ولو لم يكن يعرفهم فما أقرض أحداً شيئا وطالبه به ولارد يوما سائلا ولاخضع لعظيم قط وانما كان يلين أو يتواضع لصغار الناس وأواسطهم وكان ذكيا فطناقوى الحافظة فصيحا جريئا شاعرا مطبوعا وكاتبا ناثرا

(٣) مؤلفاته وكتاباته

ومن مؤلفاته الكثيرة ديوان شعر يشتمل على نحو أربعة آلاف بيت نظمها وشبابه باسم الثغر طلق المحيا. وديوان آخر في نحو ثلاثة آلاف بيت وروايتا (الوطن) و(العرب) ورسائل أدبية مسجوعة لم تصل أيدى جامعى السلافة منها الا الى أربع عشرة رسالة بعد السعى الكثير ومكابدة العناء الجزيل. وكان ويكون (وهو الذى طبع بعضه فى الاستاذ) وواحد وعشرين كتابا فى فنون مختلفة قطع لاجلها أيام حرب الاختفاء رقاب الفراغ بسيوف الاقلام. منها ديوان شعر يحتوى على ما يقارب عشر آلاف بيت وهو الآن محجور عليه فى الاستانة. ومنها النحلة فى الرحلة والاحتفاء فى الاختفاء. والشرك فى المشترك وكتاب فى

المترادفات . وآخر في اللغة سماه موحد الفصول وجامع الاصول . والفرائد في العقائد . واللآلىء والدرر في فواتح السور . والبديع في مدح الشفيع . وأمثال العرب وغير ذلك

وقد فقد كثير من مؤلفاته ومنظوماته حرقا أوضياعا أواغتيالا

المختار من نثره

لواء النصر فى أدباء العصر

وهى رسالة أنشأها عند دخوله محروسة مصر للاقامة بها سنة ١٢٧٧ هجرية وكان سنه إذ ذاك سنة عشرة سنة وقد اجتمع بجماعة من الشعراء والمنشئين بواسطة أديب مصر المرحوم الشيخ أحمد وهبى وقد تعرف منه بستة من الشعراء علم أنهم أدباء العصر على التحقيق فكتب هذه الرسالة فى تراجمهم منسوبة على منوال من السجع لاعلى وتيرة واحدة وهى

الحمد لله مولاه والصلاة على أصل البديع الشفيع وبعد فهذه نتيجة بهيجه عن ناقل الاكياس من الناس روى عن فكره عن ليه عن نظره عن قلبه حديثاً حديثا الصدق منه والحق عنه والدقة اليه والرقة عليه انه ركب افراسه وثار واستصحب الفراسة وسار يجوب الاقطار اختبارا ويترك

الأوطار اختياراً ويقرأ الجرائد اكتشافاً وينظر الجرائد
استلطافا في شرف نفس عن الناس على طرف أنس بلا كاس
لاتردّه المتاعب عن أمله ولا تلهيه الملاعب عن عمله حتى ملأ
أوعيته حكماً وعاد أنديته حكماً وقابل أحباره ببضاعته وقص
أخباره على جماعته فغطوا رؤوسهم وناموا ثم قطبوا وجوههم
وقاموا سكوتا لا يتكلمون من الهم ومرضى يتألمون من
الذم فتعلق بالأذيال وصاح وتحقق الوبال فناح ونادى بأعلى
صوت أيها الكرام هذا هو الموت تقومون بلا كلام مع أنى
عبدكم فى الخدمة وعندى عهدكم فى الذمة ما أضعت لكم مالا
ولا أطرت لكم سراً ولا عكست لكم حالا ولا أثرت لكم
شراً زودتمونى للسفر فجبت وقضيت الوطر وأبت بكواكب
دريه كلها غرر وغرائب أدبية حليها درر حسبها أو صيتمونى
وقت النحله فلم تركتمونى بعد الرحله هل بضاعتى رديئة
أم بيعتى نسيئة كلا لا بضاعة أحلى من جوهر العقد فى جيد
السعد ولا أجل بعد النقد يداً بيد ولئن أبيتم القبول يقبح
أذواقكم مضيت بها قبل الذبول لغير أسواقكم ثم رحل بها

الي الاسـواق المأنوسة أسواق الادب فى مصر المحروسة
بستان الأرب ووضعها بخان شاهبندر التجار لحفظها وماخان
وأمنت البوار إلا أنه لم يعرض البضاعه على أهل الصناعه
من أول الامر بل لزم حـده وسكت مده على نار الجمر
واستصحب الجلد ودار البلد لمعرفة السلع حتى عرف الجديد
من الرث والثمين من الغث من الجواهر والخلع فرأى الناس
يتهادون بالمواهب مع اختلاف المذاهب فى المعامله وكل
ينادي على بضاعته ويفتخر بضاعته حتى يكدر آمله فلايربح
منها غير الكاسد ولا ينجح منهم إلا الحاسـد البليد الحمار تراه
فى المشدقه كانه فى مشنقة يحاول الفرار يعارض أسـتاذه
ويفتت أفلاذه بما يبديه إن دخل علي أمير لا يفارق السرير
حتى يسديه وإن فارق صوبه جر ثوبه مهرولاً فى مشيته يسلم
بالبنان وينكر بالجنان ويعبث فى لحيته ان جلس تفرطح
وان نام تبطح وإن قام تمطى وإن تكلم مقت وإن استفتى
سكت فان أجاب أخطأ وما ذاك إلا من عدم الالمام والخروج
عن مذهب الامام والاقتصار على الاجتهاد فلو اكتسى
بالحلم ولزم أهل العلم لروى واستفاد فان من حاد عن هـذ

المورد النهل ورضى بمر الجهل ضل ومن اعتمد على العقل
وازدرى بالنقل ذل ولكن صار الجهل شرابهم فاستنعق البوم
غرابهم لخراب رؤوسهم واتخذوا الطمع أمامهم لخول الفقر
ذمامهم لذل نفوسهم فقال بئس الصنيع يتقدم الوضيع ويتأخر
الشريف ويتطاول اللئيم في مجلس الكريم ويذم الظريف
فرجع إلى الشاه الكبير الجليل الأمير السيد الشهير تاج
النباهه بدر الكرام وراوى الاوام بل باب السلام ونفس
النزاهه لسان العرب ومعين الأدب عريق النسب طاهر
الاخلاق روض البيان ثبت الجنان حلو اللسان سليم الاذواق
بغيض الممازف حبيب المعارف الغيث الواكف سمير المعالى
البليغ الرشيد اللبيب المجيد العقد الفريد ناظم اللآلى إنسان
عيني وعين انسانى بل نور لبي لسان فنى وفن لسانى السيد
أحمد وهبي وجلس بين يديه وأخبره بالحقيقة الى آخر القصة
فمال بعطف اليه وأدخله الحديقة وداوى له الغصة بحديث
أحلى من الشهد وأطيب من القرب وألذ من الوصال فاستراح
من السهد واقتحام الكرب نقد الرجال ثم استماده منه
لحلاوة الوعظ فى هـذا المجال ليرويه عنه لفظا بلفظ فابتدأ

وقال لكل سلعة قوم ولكل قوم بضاعة ولكل عصر رجال وحالنا اليوم تزييف الصناعة وطلب المحال والعادة ان اعتيدت صارت طبيعة لا يمكن فوتها والسادة أبديت فى المدة البديعة ومضى وقتها ولكن على من اجتمعت وجلست معه ومن عرفت وممن سمعت وكنت تبعه ومنه اغترفت هل اختبرت بنفسك وعلمت أفرادهم أم اتكلت على الاخبار السائرة فان أبناء جنسك لا يحسنون انشادهم الا فى الامور الطائرة وقد كثرت تجار هذه البضاعة فى كل سوق وكل ممترى فهجرت الناس هؤلاء الباعة ومالوا إلى الفسوق فقل المشترى فالتزم كل دلال أن يحمل على رأسه وكتفه ويمشى فى طرق غير مستقيمة ليروج هذه الاحمال بتزيينه وحلفه ولو بدون القيمه فقال إنى لم أجىء للبيع والشراء مع هذه الطائفة الزائفة وجوب القرى فى المدة السالفة للأمة العارفة ولم أدخل بيت أحد طمعا فى فوائد أو جريا على عوائد بل دخولى هذا البلد برسم السيد الماجد الفرد الواحد الكامل المؤدب البارع النجيب البليغ الاديب الشهم المهذب المجيد اللبيب المحب الحبيب عزيز الوجود حافظ العهود ومنه تعرفت بحضرتكم

(١) اشارة الى صديقة المرحوم عبد العزيز بك حافظ

وبه تقربت اليكم ووفدت عليكم حتى تشرفت بطلعتكم ووقفت
بين يديكم وحظيت ببعض مالديكم ثم أخذت أسأل جرائد
الاخبار عن أهل المعارف والعوارف فرأيت فيها من عد
من الاحبار وهو من أهل المعازف أوالمناسب حتى سئمت
نفسي وعلمت أن الادب عدم صحبيه فقضي نحبه وتحققت فوت
أنسي وقلت اقنع من الغربه بحسن الأوبه والزم وكرى فهولى
جنه بل جنه وأجانس فكرى وأحسن ظنه بلا منه قال إنك
لم تر غير هذا الشهم سماء إخوانه وبدر خلانه وسحاب جيرانه
صائب الفهم المعنى الوجيز عبد العزيز الحافظ المجيز الواله
بالجود حسن الخلق والخلق محب الصواب والحق باب الوفاء
والصدق ذى السير المحمود والرأى الصافى والعقل الوافى
والقول الشافى نعم وإن كان شمس الاماره ومعدن الكرم
وثابت القدم المفرد العلم إلا أنه لم يجالس لهذه التجارة
وانما هو ذو مقام عالى يشترى اللآلى بالثمن الغالى والافصناعها
فى هذا العصر كثير والعدد قليلو الرشد عادمو المدد لالفقد
المشترى فى هذا العصر بل لسعى الاجلاف فى غش الاصناف
مع عدم الانصاف فشقى كل بفعله وانكسر جمله وخاب أمله

وضل عمله فلم يبق منهم على أصله سوى من لاذ به البديع والتجأ ولم يرض منه بمسكن غير الحجا حتى أمن من السفلة ونجا من رضع قامة ثدى البيان فجرى فى بحر الأدب وخط وسار بالسلامة من شط إلى شط ولم يدركه عطب قط فنظم فكره عقود الجمان وحلى بالدرر النحور والغرور بل الطرر العالم المدقق بدر هذا العصر ولسان الأدب فى مصر السيد على أبو النصر زكى محقق أمام كبير حافظ خبير ليس له نظير فانه إن تكلم أوجز وإن أنشأ أعجز وإن وعد أنجز وإن سكت هابته القلوب ليس فى مجالسه شغب بل كله طرب فى أدب بكل أمر محبوب وفيه من حسن الاخلاق ماتتحلى به الاذواق بل الاطواق فى الرقه وعنده من المبانى حصن الامانى محكم المبانى بكل دقه فهذا قوى الجلد طاهر الخلد أديب البلد أبو الفصاحة ابن الشرف وخذن التحف مباهى السلف بحسن السماحه نظمه نظم اللآلى ونجمه بدر المعالي وحظه مدح الموالى وحلية الذوق السليم والطبع القويم يقول الرجل على عجل بلا وجل بأفصح لسان وبالسجع يداوى الصدع ويشنف السمع بأوضح بيان ويليه صاحب الحماسه

والفطنة والكياسه روض البديع وثمرة أفنانه مجلى عرائس الابكار فى خدور الافكار لكل مقام رفيع من قومه وإخوانه الذى طلع فى سماء المعارف شمساً وطاب برقائق الاقوال نفساً وأرضع العلم لليراعه فنطقت بأحسن براعه زاحم من تقدم حتى جلس فى الصدر وسهر الليالى حتى رأى ليلة القدر ففاق الجماعة فى هـذه الصناعة تمشى المعانى تحت ظل ركابه وتجرى البلاغة طبق أمر جنابه فان زينها حتى تحلت وزفت فى الوجود وتجلت خاتمة أهل الادب وقاموس لسان العرب من سحت سحب معانيه فأروت محمود أفندى صفوت(١) فهو المشار إليه بالبنان المنفرد بالبيان فى الرقائق الادبية والمحاسن العربية لم يلحقه فى هـذا الميدان فارس ولم يدرك معارفه ممارس وانسجام البديعية يقضى له بالأفضلية مع بقية غرائبـه الشهيرة وكواكب سمائه المنيرة التى ظهرت للعيان فأبصرها العميان لا ينكرها إلا الجاهلون ولا يعقلها إلا العالمون ويليه الشاب الذى غرس غصن القريض فأثمر واطلع هلال البديع فأقمر وفوق سهم الاجادة فأصاب الغرض وعالج

(١) الشهير بالساعاتى السكندرى أصلا

جسم العروض حتى نقه من المرض اللوذعى السرى المدره الجرى مجـلى من خدور أفكاره كل بهنانة رعبوبة ومبدى للوجود كل آية أعجوبة المرجف بفخامة لفظه قلوب المران والمخرس بجزالة نظمه ألسنة الخرصان من رق حتى استعبد حر الكلام وعف حتى تشربته قلوب الكرام إن جلس للانشاء جثا سحبان على ركبه وان أعمل قلمه كف قس عن خطبه غيث البديع الهامى محمود بك سامى (١) ويليه بستان الكلام وعنوان الكرام الشاب الذى شمر عن زند الفهم وحسره وحمل على جيش المعانى فأسره البارع الذى فاح عطره على المعارف فنشقته ورأت بنات الافكار جمال ذهنه فعشقته الفاضل الذى ألفته اللغة العربية وعرفته المعانى الأدبية فطلع فى سماء العلم بدراً وجرى في فيا فى الفنون بحراً الأديب الذى سمعه بلبل الذوق فافصح ورآه زهر البديع ففتح ولزمته المحاسن لزوم النور للبدور وهامت به المعارف هيام النفوس بالسرور خد البديع المورد القانى الشيخ أحمد الزرقانى ـ ويليه الامير الذى دعا الادب فلباه وساسه حتى رباه فظهر للوجود

١) محمود باشا سامي البارودى رئيس مجلس النظار فى الحوادث العرابية

بدراً ماله أفول وغصناً لم يعتره ذبول فهو بين أهل الصناعة الرئيس والجوهر النفيس نظم من المبانى أرقها ومن المعانى أدقها الشاعر الناثر المجيد الماهر من غاص بحر الادب واستخرج الصدف من قاعه وحاصر جيش البديع حتى صار من حزبه وأتباعه عقد جيد الزمان الفريد محمد بك سعيد فانه امتد فى البلاغة باعه فأعيا معاصريه أتباعه ـ وأفضلهم بستان العلم وزهر الحلم مجرى جياد أفكار فى كل ميدان محلى بجواهر ألفاظه كل ديوان رامى نبال وعظه الى الاحشاء ومفوق سهام بديعه إلى الانشاء حامل لواء العلوم العقليه وقائد جيوش الفنون النقليه مطلع شمس الامانى ومبارز فرسان المعانى الهمام الذى إن أطنب أطرب وإن أعرب أغرب اللوذعى الذى إن ألف لم يتكلف بل يجعل الانسجام زينة الكلام وإن نثر كر بهجوم على سرايا النجوم فالنثر كتاب هو عنوانه ولبه ملك والنظم ديوان نفث فى المعانى نفثه ماهر لانفثة ساحر وخدم الفنون خدمة مجدى لاخدمة مكدى ورواه الصدق بنهله حتى اعترف بالفضل لاهله من

---

(١) نجل المرحوم جعفر باشا مظهر

ملأت من دنان أدبه أقداح سكرى عبد الله بك فكرى(١) فهو واحد الدنيا وممتطى العليا فهؤلاءهم تجار البيان و نبلاء الزمان لا تنشر الرقائق إلا عنهم ولا تقتبس المعارف إلا منهم ومن عداهم رعاع لم يضىء لهم شعاع يسرقون الكحل من العيون ويمزجون لجد بالمجون فساق فى صفة عباد وسفلة فى هيكل زهاد ثياب منقوشه وعمائم منفوشة (واعباب) كبيره ممتلئة كبيره لايعرفون من العلم الا إسمه ولا من الادب الا رسمه ان رأوك على بساط الادب تطفلوا فان أخذت فى البحث تنصلوا على أن شهرتهم أكبر من الاجرام ولحاهم أطول من ألية الاغنام فعلمت أنه التزم الصدق وقال الحق وعجبت من حسن قريحته وشكرته على نصيحته

---

(١) المرحوم عبد الله باشا فكرى ناظر المعارف المصريه سابقا

طالع الكرامة بحسن السلامة

وهى رسالة كتبها إلى أستاذه المرحوم الشيخ محمد العشرى وقد بلغه إنه كان راكباً عربة مع بعض الناس فى زمن المطر فوقعت بهم العربة ونجا الشيخ منها سالماً وأصيب الذى كان معه فكتب اليه الاخوان من الاسكندرية يهنئه بسلامة الاستاذ وكان إذ ذاك بينها فكتب الى الشيخ هذه الرسالة وهى سجعات مختلفة الأوضاع والاوزان من مبتكراته كما سيظهر للقارىء

منحتنا اللهم سلامة الروح فلك الحمد على هذه المنحه حمداً بلاعد ووهبتنا صحة لب البيان فلك الشكر على هذه الصحة شكراً بلا حد يلوح بدره ويفوح عطره روح هو عين الحياه ومدد العقل ولب هو منطق الشفاه وسند النقل طال عمره وجال امره غذاء النفوس وبهجة المهجه ونور الشموس ومهجة البهجه أمناسرّه وعمنا برّه أستاذى وقدوتى وعين بشرى وملاذى وعمدتى محمد العشرى قام ذكره ودام شكره سيدى ومجيرى ومؤيدى ونصيرى يخصك التحية غرس بستانك وغصن رقتك وزهر إحسانك وثمر دقتك

الطيبة الشهيه ويهدى لسيدتك الرفيعة الشريفة ويعرض لسدتك المنيعه المنيفه سلام لسان وجنان ويميل - لرأفتك وعظيم فضلك بل الى رحمتك وعميم عدلك ميل حيران ولهان

رمى باالعناء وطول التنائى   على أنه مخلص فى الوفاء

لعبت به الاشواق في مصارع العشاق لعب الراح بالارواح فى مجلس الانس وجرت به الاتواق فى ميادين الاذواق جرى السحاب والارواح فى حومة الشمس وقاده الهيام إلى باب السلام فظللته الارواح وطابت النفس حتى طرق الباب وتقدم للجناب فكتب فى الالواح مزيل اللبس

صار عين البديع بحر المعانى   باب كنز الفنون سر البيان

ومازلت تغمسه فى ألوان الفنون حتى انصبغ وتنشده الجد والمجنون حتى نبغ وجرى خلفك فى ميدان النباهه وصار الفك فى العفة والبناهه

قد كابد الصبر حتى صار مطمعه   لا يسأل الناس إلحافاً وإلحاحا

إن تكلم بلسان فبيان من جنان وان خط ببنان فبا حسان عن فرقان وان انتسب فنعم النسب مع الحسب ولا عجب فالى العرب فن الادب

آباؤه الغر أهل الجود والكرم   وكلهم غايه فى الحلم والكلم

ربيت فأحسنت وغذيت فأسمنت مؤدباً ليثاً ولنت فسودت وجدت فعودت مهذباً غيثاً وعلمت فأفهمت وأشرت فألهمت غرض سهمك وقدنلت ماأملت فيمن عليه عولت بحسن فهمك

غلامك الشهير بالنديم   من صار فى البيان كاالنسيم

وكيف لايكون لسانى قوس البديع وكلامى السهم السريع وأنت باريه ورامية أم كيف لايكون مقامى الحصن المنيع وقدرى العزيز الرفيع وأنت مغليه وبانيه فوجه جمال العلم أنت غرته وانسان عين الحلم أنت قرته وحاليه وجاليه وجبين العقل أنت طرته وكتاب الفضل أنت صورته وطالبه وتاليه

على بابك العالى من الفضل راية
على رأس أرباب المعارف تخفق

فعلمك جنات وحلمك جنة
وكلك خيرات وغيثك مغدق

أرى غصن من يدعو إلى الفضل نفسه
من الفضل عرياناً وغصنك مورق

اذ رمت إنشاء فمن صدق فكرة

تهادى بأبكار وغيرك يسترق

ثم أنهى لفضيلتك وحضرتك السنيه ماوصل الى فأوجب الشكر على مادمت حيا وهو سلامتك من تلك البليه بمعرفة العربيه وقد وقع فى الرى من أدركه العى ولم يع شيأ أدخله التقصير فى جمع التكسير فكنت فى جمع السلامه تحية وكرامه اذ كنت تقيا وظهر ذراعه الكسير ظهور الضمير ومذ رأى أولاده آلامه وفهموا كلامه صاحوا بكيا قد أتى أهله فساءت دياره اذ وهت رجله وبانت يساره ولو جاءهم الخبر في الابتدا لطلبوه الفداوقالوا اتقبر هل للصدرى رد الندى ولو سلك الفحل طرق الهدى أمن الردى وما وقع فى الوحل وترك العدا تجلوا الصدا فالحمد لله على السلامه والنعمة والكرامة إذ أنقذ عمدتى وأنجد منيتى فانه باب السلام وبدر التمام

درر النحلة وغرر الرحلة

وهى رسالة بعث بها من الاسكندرية الى صديقه الشيخ أحمد وهبى

لك الحمد يامو فى كل عامل أجره والصلاة والسلام على صاحب الهجرة وبعد فقد ألهمنى خير من رحم السعى فى صلة الرحم فخرجت آخر الصوم وقت العصر من المحروسة مصر بوابور يقطع الطرق قطع الصواعق للجو والغيث للنو كلما أطعموه نثر وزمجر وصفر حتى اذا التهب قبسه وطلع نفسه أرسل الدخان خلفه ذوائب والاخبار أمامه جوائب ثم نبه رفقته للسير وحثها على الطير وسار ولكن بحساب وهى تمر مر السحاب فما ندرى أهو النعمان يوم عبوسه أم الحجاج يمر على حبوسه أم عنترة يكر على آسر عبلة أم الكسعى يشفع قوسه بنبله أم جبان رأى الصمصامة فى يد عمر أم سيف صدر له من الخليفة أمر تارة يرينا حملة على على ابن ود وهجومه على باب خيبر وقد سد ويقول خذوا من اندفاعى كيفية سير الافاعى فما نعلم أبساط الارض

(١) المراد برفقته العربات المقطوره خلفه

يطوى على عجل أم ليالى الانس تسرق الاجل فانا كنا لا ننظر فى هيئته ونعجب من مشيته إلا وقد عدل عن السير وكف وأدرك المقصود ووقف اذ ذاك يضيق عليه المجال لكثرة النساء والرجال والاطباء تجس نبضه وتتمهد طوله وعرضه فان وجد فيه اختلاج بادروه بالعلاج حتى اذا صح السقيم وأخذ شهادة الحكيم ودع القوم وثار وأرسل العنان وسار وأنا أقول فيه لاكون من واصفية

نظر الحكيم صفاته فتحيرا شكلا كطود بالبخار مسيرا
دوما يحن الى ديار أصوله بحديد قلب باللهيب تسعرا
ويظل يبكى والدموع تزيده وجداً فيجرى في الفضاء تسترا
تلقاه حال السير أفعى تلتوى أوفارس الهيجاء اثار العثيرا
أو اكرة أرسلتها ترمى بها غرضاً فجلت أن ترى حال السرى
أو سبع غاب قد أحس بصائد فى غابه فعدا عليه وزمجرا
فكانه المديون جاء غريمه فانسل منه وغاب عن تلك القرى
أو أنه شهب هوت من أفقها أو قبة المنطاد تنبذ بالعرا
لاعجب للنيران إذ يمشى بها فمن اللظى تجرى الورى كى تحشرا

تطلب هذه الكتب وخلافها من المكتبة المحمودية التجارية بميدان الازهر

لصاحبها محمود على صبيح ـ صندوق بوستة رقم (٥٠٥) مصر

ترسل هذه الاصناف وغيرها لمن يرسل الثمن مقدما لكل الجهات

الابهاج شرح المنهاج

للامام السبكى مع نهاية السول شرح منهاج الاصول للاسنوى

ثلاثة أجزاء (٦٠ قرش صاغ)

مختار العقد الفريد

لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨

اختيار لجنة من علماء وادباء المدرسين (٢٠ قرش صاغ)

مختار الاغانى

فى الاخبار والتهانى وهو مختصر كتاب الاغانى للاصفهانى

اختيار ابن منظور (١٢ قرش صاغ)

بلاغة العرب

فى القرن العشرين مصورة طبعة كبيرة مع كلمات وأشعار مختاره

من أقلام الكتاب (١٠ قروش صاغ)

السعادة لابن مسكويه

فى الاخلاق مع مقدمة فى فلسفة الاخلاق

لسيد على الطوبجى السيوطى (٣ قروش صاغ)

لوامع الاسعاد

فى جوامع الاعداد

جمع من كل الفنون لكمال الدين الادهمى (٤ قروش صا

اطلبوا فهرست المكتبة فيها أسماء الكتب وأثمانها ترسل مجانا لك

